التحفة المهدية

شرح الرسالة التدمرية

تأليف الأستاذ

فالح بن مهدي آل مهدي

الجزء الثاني



قــــوله : (القاعــدة السادســة)

إن لقــائــل أن يقــول لابد في هذا الباب من ضابط يعرف به ما يجوز على الله مما لا يجوز. في النفي والإثبات إذ الاعتماد في هذا الباب على مجرد نفي التشبيــه أو مطلق الإثبـات من غير تشبيــه . ليس بسديد . وذلك أنه ما من شيئين إلا بينهما قدر مشترك وقدر مميز.

فالنــافي ان اعتمــد فيـما ينفيه على أن هذا تشبيه . قيل له : ان أردت أنــه مماثــل له من كل وجــه . فهــذا باطل . وان أردت انه مشابه له من وجه دون وجه أو مشارك له في الاسم . لزمك هذا في سائر ما تثبته .

ش : يقــول الشيــخ بعــد ما سبق من البحث مع طوائف المبتــدعــة ومناقشتهم . إذا سأل أحدا من الناس قائلاً ما هو الأصل الذي يعتمد عليه في باب الأسماء والصفات قيل له : لك أن تسأل هذا السؤال وجوابنا عليه هو أن هناك أصلا يعتمد عليه وضابطاً يركن إليه وهو الكتاب والسنة فما جاء في القـرآن أو صحت به الاخبـار عن رسـول الله ﷺ من صفـات الله ونفي المثيل عنه فهو المعتمد : أما الاعتماد على النفي المجرد عن الاثبات كما هي طريقــة المعطلة فلا يكفي : وكــذلك الاعتماد على الاثبات المجرد عن نفي التشبيــه كما هي طريقــة المشبهــة فلا يكفي : بل هذا قول فاسد ورأي ليس بســديــد : فإنــه ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك «هو المعنى العام» وقدر مميز هو ما يختص به كل منهما وقد سبق الكلام على هذه المسألة : وحينئذ إذا قال المعطل إثبات الصفات يقتضي تشبيه الله بخلقه : قيل له إن أردت أن إثبــات الصفـــات يقتضي تشبيــه الله بخلقــه قيــل له ان أردت ان اثبــات الصفــات تقتضى المشــابهــة من كل وجــه فهذه دعوى غير صحيحة . وإن أردت أن المشــابهــة تحصــل من وجــه هو الاتفاق في الاسم وفي المعنى العام دون وجــه هو ما يمتــاز به أحــدهما عن الآخــر فيجب أن تقول هذا في سائر أسـماء الله وصفــاته . وهذا الالزام شامل للأشاعرة والمعتزلة والجهمية . فان

الجميع ينفون شيئاً ثابتا بينما يثبتون شيئاً يلزمهم فيه نفس المحذور الذي فروا منه كما تقدم. وسبيل المؤمنين في الاعتقاد. هو الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه وسمى بها نفسه في كتابه أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها أو نقص منها.

قــــوله :

وأنتم إنما أقمتم الدليل على إبطال التشبيه والتماثل الذي فسرتموه بأنه يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويمتنع عليه ما يمتنع عليه. ويجب له ما يجب له. ومعلوم ان إثبات التشبيه بهذا التفسير مما لا يقوله عاقل يتصور ما يقول. فانه يعلم بضرورة العقل امتناعه. ولا يلزم من هذا نفي التشابه من بعض الوجوه كما في الأسماء والصفات المتواطئة ولكن من الناس من يجعل التشبيه مفسراً بمعنى من المعاني. ثم إن كل من أثبت ذلك المعنى قالوا انه مشبه ومنازعهم يقول. ذلك المعنى ليس من التشبيه.

ش : يعني أنه يقال لمن نفى الصفات زاعماً ان إثباتها يقتضي التشبيه يقال له بالاضافة إلى ما سبق إنكم معشر النفاة قد أقمتم البرهان على نفي التشبيه الذي مقتضاه أنه يجب لله ما يجب للمخلوق ويجوز عليه ما يجوز عليه ويمتنع عليه ما يمتنع عليه. ولا شك أن التشبيه بهذا التفسير مما لا يقوله عاقل يتصور ما يقول. لفساده ووضوح بطلانه. ولكن إثبات الصفات مع نفي مماثلة الله للمخلوقات ليس من هذا القبيل. وحينئذ فاتفاق الخالق والمخلوق في الاسم وفي المعنى العام لا يقتضي تشبيها ولكن المعطلة اصطلحوا على تسمية تعطيلهم توحيداً. وتسمية توحيد المرسلين تشبيها. فيقال لهؤلاء المدلسين الملبسين على أمثالهم. المحذور الذي نفاه العقل والشرع والفطرة وأجمعت الأنبياء على بطلانه. هو أن يكون مع الله آلهة أخرى أو أن يكون لله مثيل أو ند. لا أن يكون إله العالمين الواحد القهار حياً قيوماً سميعاً بصيراً متكلماً آمراً ناهياً فوق عرشه له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا.

قـــــوله :

وقـد يفـرق بين لفـظ التشبيه . والتمثيل وذلك أن المعتزلة ونحوهم من نفـاة الصفـات يقـولو ن . كل من أثبت لله صفة قديمة فهو مشبه ممثل . فمن قال : بأن لله علما قديـماً أو قدرة قديمـة كان عنـدهم مشبهـاً ممثـلاً لأن القديم عند جمهورهم . هو أخص وصف الإله . فمن أثبت له صفة قديمة فقـد أثبت لله مثـلاً قديـماً . ويسمـونه ممثلا بهذا الاعتبار ومثبتة الصفات لا يوافقونهم على هذا بل يقولون أخص وصفه . ما لا يتصف به غيره . مثل كونه رب العالمين . وإنه بكل شيء عليم . وأنه على كل شيء قدير وأنه إله واحد . ونحو ذلك . والصفة لا توصف بشيء من ذلك .

ش : التشابه ليس هو التماثل في اللغة .

فتشبيه الشيء بالشيء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه . وذلك لا يقتضى التـماثـل الذي يوجب أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع . فإذا قيل هذا حي عليم قديـر وهـذا حي عليم قديـر فقـد تشـابهـا في مسمى الحي والعليم والقـديـر ولم يوجب ذلـك أن يكون هذا المسمى مماثلاً لهذا المسمى من كل وجه . فهناك ثلاثة أشياء :

أحدها : القدر المشترك الذي تشابها فيه وهو معنى كلي لا يختص به أحدهما .

والثاني : ما يختص به الرب من الحياة والعلم والقدرة وسائر صفاته .

والثالث : ما يختص به العبد من الحياة والعلم والقدرة ونحو ذلك فما اختص به الـــرب عز وجـل لا يشـركـه فيـه العبـد ولا يجوز عليـه شيء من النقـائص التى تجوز على صفـات العبـد ومـا يختص به العبد لا يشركه فيه الرب ولا يستحق شيئا من صفات الكمال التى يختص بها الرب عز وجل . وأمـا القـدر المشـترك «وهو المعنى الثابت في ذهن الإنسان» فهذا لا يستلزم خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق . فالمماثلة تقتضي المساواة من كل

وجه بخلاف المشابهة. وقد يعبر بأحدهما عن الآخر. ولهذا عبر المؤلف بقوله: وقد يفرق بين لفظ التشبيه والتمثيل. والمعتزلة والجهمية ونحوهم اصطلحوا على تسمية إثبات أسماء الله وصفاته تشبيهاً وتمثيلا. ولذلك قالت المعتزلة: ان أخص وصف الرب هو القدم. وأن ما شاركه في القدم فهو مثله. فإذا أثبت له صفة قديمة لزم التشبيه وكل من أثبت صفة قديمة فهو مشبه. وقوله ونحوهم يعني كالجهمية فإنهم قالوا نحن نثبت قديماً واحداً ومثبتوا الصفات يثبتون عدة قدماء قالوا: والنصارى أثبتوا ثلاثة قدماء مع الله تعالى فكفرهم. فكيف من أثبت سبعة قدماء أو أكثر. قال الشيخ فانظر إلى هذا التدليس والتلبيس الذي يوهم السامع أنهم أثبتوا قدماء مع الله تعالى وإنما أثبتوا قديماً واحداً بصفاته وصفاته داخلة فى مسمى اسمه كما أنهم إنما أثبتوا إلها واحداً ولم يجعلوا كل صفة من صفاته إلها بل هو الإله الواحد بجميع أسمائه وصفاته. وقول الطائفتين متلقى من عباد الأصنام المشركين بالله تعالى المكذبين لرسوله حيث قالوا يدعو محمد إلها واحداً ثم يقول يالله ياسميع يابصير فيدعو آلهة متعددة وقد أنزل الله فى الرد عليهم ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ والمعنى أي اسم دعوتموه به فانما دعوتم المسمى بذلك الاسم فالمعتزلة إذاً نفوا الصفات بناء على أنها قديمة والقدم عند أكثرهم أخص أوصاف الإله فحيث أثبتت الصفات صارت مثلا له وكلا الرأيين باطل. فان أخص أوصافه سبحانه ما لا يتصف به سواه ككونه رب العالمين وعلى كل شيء قدير وبكل شيء عليم وكونه الغنى عما سواه والصفة لا تتصف بهذه الخصائص. والصفة لا تكون مثلا للموصوف إذ الموصوف هو الذات القائمة بنفسها والصفة قائمة بها والقائم بغيره لا يكون مثل القائم بنفسه.

قال الشيخ وإذا كانت صفة النبى المحدث موافقة له فى الحدوث ولم يلزم أن تكون نبياً مثله فكذلك صفة الرب اللازمة له إذا كانت قديمة بقدمه لم يلزم أن تكون إلهاً مثله. فالمعتزلة مذهبهم نفي صفاته اللازمة لذاته وشبهتهم أنها لو كانت قديمة لكان القديم أكثر من واحد. وهذا تلبيس فليس

بواجب أن تكون صفة الإله إلهاً. كما أن صفة الإنسان ليست إنسانا ولا صفة النبى نبيا ولا صفة الحيوان حيوانا. فلفظ القديم فيه اجمال فإذا أريد به القائم بنفسه، والفاعل القديم أو الرب القديم ونحوذلك. فالصفة ليست قديمة بهذا الاعتبار بل هي صفة القديم وإذا أريد ما لا ابتداء له أو ما لم يسبقه عدم مطلقا فالصفة قديمه.

قـــــوله :

ثم من هؤلاء الصفاتية من لا يقول في الصفات إنها قديمة بل يقول. الرب بصفاته قديم. ومنهم من يقول هو قديم، وصفته قديمة، ولا يقول هو وصفاته قديمان. ومنهم من يقول هو وصفاته قديمان. ولكن يقول ذلك لا يقتضى مشاركة الصفة له في شيء من خصائصه. فإن القدم ليس من خصائص الذات المجردة بل من خصائص الذات الموصوفة بصفات وإلا فالذات المجردة لا وجود لها عندهم فضلا عن أن تختص بالقدم والصفات متصفة بالقدم.

وليست الصفات إلهاً ولا رباً كما أن النبي ﷺ محدث وصفاته محدثة، وليست صفاته نبياً.

ش : بعد أن فرغ المؤلف من ذكر شبهة المعتزلة فى نفيهم الصفات وأنهم فروا من ذلك خشية أن يثبتوا قديماً مع الله. بين رأي المثبتين فى وصف الصفة بالقدم فذكر أن منهم من لا يصف الصفة وإنما يصف الرب بذاته وصفاته بأنه قديم: أما الصفة وحدها فيتحاشا من وصفها به لاشعار ذلك بانفصال الصفة عن الموصوف: ومنهم من لا يرى بأساً بوصف الصفة بالقدم كما يوصف الرب بالقدم مع العلم بأن قدم الصفة تابع لقدم الموصوف: ولكن هذا الصنف يتحاشا من وصف الرب وصفاته بالقدم بصيغة التثنية: فلا يقول الرب وصفاته قديمان: لا شعار التثنية بشيء من استقلال أحد المثنيين عن الآخر ولكن يقول الرب قديم وصفته قديمة:

ومنهم من لا يرى مانعاً من قوله الرب وصفاته قديمان بصيغة التثنية : لأن الصفة قديمة بقدم الموصوف وليست مثلاً له :

وطائفة من المثبتة كابن كلاب لا تقول فى الصفات وحدها بأنها قديمة حتى لا تقول بتعدد القدماء :

بل تقول الله بصفاته قديم : كما أن القدم ليس من خصائص الذات المجردة وإنما هو من خصائص الذات المتصفة بما لها من حقائق الأسماء والصفات : والذات المجردة عن الصفات لا وجود لها فضلاً عن أن يكون القدم أو غيره من خصائصها : وقد يقول هذا الصنف الذات متصفة بالقدم والصفة متصفة بالقدم والجميع يعلمون أن الذات المجردة عن الصفات لا وجود لها كما يعلمون أن صفة الذات لا تكون مثلا لها فالقدم يوصف به الله وليس القدم إلهاً ولا ربا ؛ وكمثال على ذلك ذكر المؤلف أن النبي ﷺ يوصف بأنه مخلوق محدث وصفاته مخلوقة محدثة وليست صفاته نبياً :

قــــوله :

فهؤلاء إذا أطلقوا على الصفاتية اسم التشبيه والتمثيل كان هذا بحسب اعتقادهم الذي ينازعهم فيه أولئك . ثم يقول لهم أولئك هب أن هذا المعنى قد يسمى في اصطلاح بعض الناس تشبيهاً فهذا المعنى لم ينفه عقل ولا سمع . وإنما الواجب نفي ما نفته الأدلة الشرعية والعقلية . والقرآن قد نفى مسمى المثل والكفء والند ونحو ذلك . ولكن يقولون : الصفة في لغة العرب ليست مثل الموصوف ولا كفأه ولا نده فلا يدخل في النص . وأما العقل فلم ينف مسمى التشبيه في اصطلاح المعتزلة .

ش : الاشارة في قوله فهؤلاء راجعة إلى المعتزلة ونحوهم : والاشارة في قوله أولئك راجعة إلى أهل السنة والجماعة والأشاعرة أيضاً فإن الجميع يطلق عليهم وصف الصفاتية نسبة إلى الصفات فأهل السنة صفاتية

لإثبـاتهم جميـع الصفـات والأشـاعـرة صفـاتيـة بالنسبـة لإثباتهم بعضها: والجميع خصوم للمعتزلة والجهمية: والمعنى أن المعتزلة والجهمية إذا أطلقوا على إثبـات الصفـات إسم التشبيـه والتمثيـل كان هذا الاطـلاق حسب اعتقـادهم الـذي ينازعهم فيه المثبتون: ثم يقول لهم المثبتون: إفرضوا أيها النفـاة ان إثبـات حقـائق الأسـماء والصفـات لله سبحـانـه قد يسمى في اصطـلاحكم تشبيهـاً لله بخلقـه: فهذا المعنى لم ينفه دليل صحيح أو عقل صريـح: والـواجب نفى ما نفـاه الكتـاب والسنـة وإثبات ما أثبته الكتاب والسنـة وقـد ورد في النصـوص الكفـء والنـد والمثـل لله: والصفـات التى وصف بها الرب نفسه أو وصفه بها رسوله ليست كفوءاً له ولا مثلاً ولا نداً؛ فلا تدخل فيما نفته النصوص: فليس فى لغة العرب تسمية صفة الموصوف كفـوءا أو نداً أو مثـلا له: ثم إن العقـل الصـريـح الخـالي من لوثـة الالحاد وأمـراض الشبـه لم ينف أسـماء الله وصفـاتـه التى سمت المعتـزلة والجهمية إثبـاتهـا تشبيهـاً: قال الشيـخ: إذا علم الرجل بالعقل أن محمداً رسول الله وعلم أنـه أخـبر بشيء ووجـد فى عقله ما ينـازعه في خبره كان عقله يوجب عليـه أن يسلم موارد النـزاع إلى من هو أعلم به منـه وأن لا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه وأنه أعلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته واليـوم الآخـر منـه: وأن التفـاوت الـذي بينهـما فى العلم بذلـك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطب فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبيب يهودي فيـما أخـبره به من مقـدرات الأغـذيـة والأشـربة والأضمدة والمسهـلات واستعـمالها على وجه مخصوص مع ما فى ذلك من الكلفة والألم لظنـه أن هذا أعلم بهذا منـه وأنـه إذا صدقـه كان ذلـك أقرب إلى حصول الشفاء له مع علمه بأن الطبيب يخطىء كثيراً وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفـه الطبيب بل قد يكـون استعـماله لما يصفه سبباً فى هلاكه ومع هذا يقبـل قولـه ويقلده وإن كان ظنـه واجتهـاده قد يخالف وصفه: فكيف حال الخلق مع الـرسـل عليهم الصلاة والسلام: والرسل صادقون مصدقون لا يجوز أن يكـون خبرهم على خلاف ما أخـبروا به قط وان الذين يعارضون

أقوالهم بعقولهم : عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال : فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطيء قط بما لم يصب فى معارضته له قط .

قـــــوله :

وكـذلـك أيضـا يقـولـون . ان الصفـات لا تقـوم إلا بجسم متحيز والأجسام متماثلة فلو قامت به الصفات للزم أن يكون مماثلا لسائر الأجسام وهذا هو التشبيه .

ش : يعنى وبـالاضـافـة إلى الشبهـة السابقة وهي أن إثبات صفة قديمـة لله يلزم منـه إثبـات مثيل له بالاضافة إلى هذه الشبهة تقول المعتزلة والجهميـة : إن الصفـات كالحيـاة والعلم والقـدرة والاستواء والعلو والمحبة والـرضـا لا تقوم إلا بجسم متحيز والأجسام متماثلة : فلو أثبتنا لله الصفات للزم أن يكـون جسـماً متحيـزاً وهـذا هو التشبيـه : هذا هو تقرير شبهتهم : والجـواب أن يقـال أولا : ما تعنـون بالمتحيـز هل تعنـون به المباين لغيره أم تقصدون به الداخل فى الاحياز بحيث تحيط به إحاطة الظرف بالمظروف : فإن عنيتم الأول فهـذا المعنى ثابت لله فهـو فوق سمـواتـه عالٍ على عرشه مبـاين لخلقــه وإن عنيتم الثـاني فالله أعظم وأجـل من أن يحوزه شيء من مخلوقـاتـه قال تعـالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

ويقـال لهم ثانيـاً : ما تعنـون بالجسم أتعنـون به الـذات التى تمكن رؤيتهـا بالأبصـار وتصـح الاشـارة إليهـا وتتصف بالحيـاة والسمع والبصر والوجه واليدين والاستواء ونحو ذلك من الصفات أم تعنون به ما كان مركباً من المادة والصورة أو ما كان مركباً من الجواهر الفردة : فإن عنيتم الأول فهو حق وإن عنيتم الثـانى فهـو باطـل : وقـد سبق بيـان هذا عند الكلام على القاعدة الثانية .

ويقـال لهم ثالثاً : قولكم بأن الأجسام متماثلة دعوى غير صحيحة ؛

فمن المعلوم أن الموجودين إذا اشتركا في أن هذا قائم بنفسه وهذا قائم بنفسه لم يكن أحدهما مثلا للآخر وإذا اشتركا في أن هذا لون وهذا لون وهذا طعم وهذا طعم وهذا عرضٍ وهذا عرضٍ لم يكن أحدهما مثلا للآخر: فإذا اشتركا فى أن لهذا مقداراً ولهذا مقداراً ولهذا حيزاً ومكانا ولهذا حيزاً ومكانا كان أولى أن لا يوجب هذا تماثلهما لأن الصفة للموصوف أدخل فى حقيقته من القدر للمقدر والمكان للمتمكن والحيز للمتحيز: فإذا كان اشتراكهما فيما هو أدخل في الحقيقة لا يوجب التماثل؛ فاشتراكهما فيما هو دونه أولى بعدم التماثل: قال الشيخ فانا نعلم أن النار والثلج والتراب والخبز والإنسان والشمس والفلك وغير ذلك كلها مشتركة في أنها متحيزة ممتدة في الجهات: كما أنها مشتركة فى انها موصوفة بصفات قائمة بها وفي أنها حاملة لتلك الصفات: وما به افترقت وامتاز بعضها عن بعض أعظم مما فيه اشتركت: فالصفات الفارقة بينها الموجبة لاختلافها ومباينة بعضها لبعض أعظم مما يوجب تشابهها ومناسبة بعضها لبعض.

قـــوله :

وكذلك يقول هذا كثير من الصفاتية الذين يثبتون الصفات. وينفون علوه على العرش. وقيام الأفعال الاختيارية به ونحو ذلك. ويقولون الصفات قد تقوم بما ليس بجسم. وأما العلو على العالم. فلا يصح إلا إذا كان جسما. وحينئذ فالأجسام متماثلة. فيلزم التشبيه. فلهذا تجد هؤلاء يسمون من أثبت العلو ونحوه. مشبهاً. ولا يسمون من أثبت السمع والبصر والكلام ونحوه مشبها. كما يقول صاحب الارشاد وأمثاله. وكذلك يوافقهم على القول بتماثل الأجسام. القاضي أبو يعلى وأمثاله من مثبتة الصفات والعلو. لكن هؤلاء يجعلون «العلو» صفة خبرية كما هو أول قولي القاضي أبي يعلي. فيكون الكلام فيه كالكلام في الوجه. وقد يقولون. إن ما يثبتونه لا ينافي الجسم. كما يقولونه في سائر الصفات. والعاقل إذا تأمل وجد الأمر فيما نفوه كالأمر فيما أثبتوه لا فرق.

ش : يعنى ومثل المقالة السابقة للمعتزلة والجهمية قول كثير من مثبتة بعض الصفات كالأشاعرة فانهم هم المراد بالصفاتية هنا فهؤلاء يسمون إثبات ما عدا الصفات السبع تشبيها . كما يقولون ذلك فى العلو والاستواء ونحوه من الصفات الاختيارية ويقولون الصفات التى نثبتها يمكن قيامها بغير جسم وأما العلو والاستواء ونحوه فلا يمكن أن يتصف بها إلا ما هو جسم وهذا معنى قول المؤلف ولهذا: تجد هؤلاء يسمون من أثبت العلو ونحوه «يعنى» كالاستواء مشبها، ولا يسمون من أثبت السمع والبصر والكلام ونحوه «يعنى» كالعلم والقدرة والارادة والحياة مشبها . ويقولون إثبات هذه الصفات يلزم منه الجسمية والأجسام متماثلة فنفوا تلك الصفا بناء على هذا الزعم: والقاضي أبو يعلي يوافق النفاة في القول بتماثل الأجسام وان كان يثبت صفة العلو لكنه وأمثاله يقولون ان العلو من الصفات السمعية، فهو كالوجه والعينين واليدين: وهؤلاء الأشاعرة قد يقولون بأن الصفات السبع لا تنافي الجسمية وإن كان الاتصاف بها غير مستلزم لذلك. والعاقل إذا تدبر الأمر وجد الباب واحداً وأن الكلام فيما أثبتوه وهو الصفات السبع من جنس الكلام فيما نفوه وهو ما عدا الصفات السبع . بل ما يقال فى أحدهما يقال في الآخر وأفعال الله الاختيارية هي الأمور التى يتصف بها عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثل كلامه وسمعه وبصره وارادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التى نطق بها الكتاب والسنة: والارشاد هو الكتاب المسمى بالارشاد إلى قواطع الأدلة وصاحبه: هو أبو المعالي عبد الملك ابن عبد الله بن يوسف ابن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني المعروف بإمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨هـ . وقد شرح كتابه المذكور. تلميذه أبو القاسم سليمان بن ناصر الأنصاري المتوفى سنة ٥١٢هـ .

والقاضي أبو يعلي هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد ابن الفراء شيخ الحنابلة في عصره سنة ٤٥٨هـ ذكر له ابنه فى طبقات

الحنابلة سبعة وخمسين مصنفاً : منها إبطال التأويلات لأخبار الصفات وأربعة ردود على الأشعرية والكرامية والسالمية . وقول المؤلف وأمثاله «يعنى» كابن عقيل وأبي الحسن ابن الزاغونى فانهما يوافقان القاضي على القول بتماثل الأجسام وفى جعل صفة العلو من الصفات الخبرية أما أمثال أبى المعالي فكالقاضي أبي بكر الباقلانى والقاضي أبى بكر ابن العربي . وقد قال شيخ الإسلام فى هؤلاء المذكورين . انه ما من هؤلاء إلا وله فى الإسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة وله فى الرد على كثير من أهل الالحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وانصاف . لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة . وهم فضلاء عقلاء . احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال : ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين وصار الناس بسبب ذلك فيهم فريقين منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل ومنهم من يذمهم لما وقع فى كلامهم من البدع والباطل وخيار الأمور أوساطها والله يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ويتجاوز لهم عن السيئات قال تعالى : ﴿ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ .

والأشعري وأئمة أصحابه كأبي الحسن الطبري وأبي عبد الله بن مجاهد الباهلي والقاضي أبي بكر الباقلانى : متفقون على إثبات الصفات الخبرية التى ذكرت فى القرآن كالاستواء والوجه واليد وإبطال تأويلها ليس له في ذلك قولان أصلا .

ولأتباعه فى ذلك قولان : وأول من اشتهر عنه نفيها أبو المعالي الجوينى . فانه نفى الصفات الخبرية وله فى تأويلها قولان : ففي الارشاد

أولها ثم انه في الرسالة النظامية رجع عن ذلك وحرم التأويل : والقاضي أبو يعلى ينفي الصفات الاختيارية في أحد قوليه .

قـــوله :

وأصـل كلام هؤلاء كلهـم . على أن إثبـات الـصفـات مستلزم للتجسيم . والأجسـام متماثلة . والمثبتون يجيبون عن هذا تارة بمنع المقدمة الأولى . وتـارة بمنـع المقـدمـة الثـانية . وتارة بمنع كل من المقدمتين وتارة بالاستفصال . ولا ريب أن قولهم بتماثل الأجسام قول باطل . سواء فسروا الجسم بما يشـار إليـه أو بالقـائم بنفسه أو بالموجود . أو بالمركب من الهيولى والصورة ونحو ذلك . فأما إذا فسروه بالمركب من الجواهر الفردة على أنها متـماثلة فهـذا يبنى على صحـة ذلك وعلى إثبات الجوهر الفرد . وعلى أنه متماثل . وجمهور العقلاء يخالفونهم في ذلك .

ش : يقـول الشيـخ أن أصـل شبهـة الجهميـة والمعتـزلة والأشاعرة وأتبـاعهم هو أن إثبـات الصفات يستلزم الجسْمية والأجسام متماثلة . والرد عليهم يكون طوراً بمنع المقدمة الأولى : وهو ان يقال الأتصاف بالصفات لا يستلزم الجسميـة وطـوراً بمنـع المقـدمـة الثانية ، وهو أن يقال قولكم بأن الأجسـام متـماثلة غير مسلم ، وطـوراً بمنـع كل من المقـدمتين . وذلك بأن يقال : ليس كل متصف بالصفة فهو جسم وليست الأجسام متماثلة : وطورا بالاستفصـال عن المـراد بالجسم . والجسم بأي تفسـير فسـروه فلا شك في بطـلان قولهم : بأن الأجسـام متـماثلة فانـه قول مخالف لصـريـح المعقـول وصحيـح المنقـول : وقـول المؤلف أما إذا فسروه بالمركب من الجواهر المفردة الخ . معناه أنهم حين يفسرون الجسم بانه المركب من الجواهر الفردة فهذا القـول يبنى على صحـة كونـه مركبا وعلى صحة وجود الجوهر الفرد وعلى صحـة تماثـل الأجسام . وكل هذه الأقوال ليس مع أصحابها سوى الظنون الكاذبة والشبه الفاسدة ولذلك يخالفهم فيها جماهير العقلاء على اختلاف أصنـافهم . والهيـولى هى كما قال : فى شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من

الدخيل عن المزهر فى كلام المتكلمين: أصل الشيء فان يكن من كلام العرب فهو صحيح الاشتقاق. ووزنه فعولى أولا: والصواب أنه لفظ يونانى بمعنى الأصل والمادة وفي الاصطلاح. جوهر فى الجسم قابل لما يعرض له من الاتصال والانفصال.

قـــــوله :

والمقصود هنا. انهم يطلقون التشبيه على ما يعتقدونه تجسيما بناء على تماثل الأجسام. والمثبتون ينازعونهم فى اعتقادهم. كاطلاق الرافضة «النصب» على من تولى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. بناء على أن من أحبهما فقد أبغض علياً رضي الله عنه. ومن أبغه فهو ناصبي وأهل السنة ينازعونهم في المقدمة الأولى ولهذا يقول هؤلاء: إن الشيئين لا يشتبهان من وجه ويختلفان من وجه. وأكثر العقلاء على خلاف ذلك. وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبينا فيه حجج من يقول بتماثل الأجسام وحجج من نفى ذلك. وبينا فساد قول من يقول بتماثلها.

ش : يعنى وخلاصة القول أن النفاة يطلقون اسم التشبيه على ما يعتقدونه مقتضيا للجسمية وهو إثبات الصفات. وهذا الحكم منهم مبناه على القول بتماثل الأجسام والمثبتون لأسماء الله وصفاته ينازعونهم فى هذا الحكم. فليس إثبات الصفات تشبيهاً بل هو التوحيد وليست الأجسام متماثلة. فليس السماء كالأرض ولا الخبز كاللبن ولا الحديد كاللحم وهكذا سائر الأجسام. ومثل مقالة هؤلاء النفاة مقالة الرافضة وحكمهم بأن من تولى أبا بكر وعمر فقد نصب العداوة لآل البيت فانه حكم باطل ينازعهم فيه أهل السنة والجماعة فانهم يحبون الجميع ويترضون عنهم ومحبة بعضهم لا تنافى محبة البعض الآخر. ولكن هؤلاء الرافضة جعلوا الأشياء لا تتفق من وجه وتختلف من وجه آخر فعندهم لا ولاء إلا ببراء. ولاشك فى أن قولهم. من تولى أبا بكر وعمر فقد نصب العداوة لعلي مقدمة باطلة. وأما

قولهم ومن أبغضه فهو ناصبي فهي مقدمة صحيحة فان من أبغض أحداً من الصحابة فقد نصب العداوة له. وحب أصحاب رسول الله ﷺ جميعاً واجب كما ثبتت به النصوص. فاذا قال الرافضي: أنتم ناصبة تنصبون العداوة لآل محمد فانه يقال له نحن نتولى الصحابة والقرابة فاذا قال لا ولاء ببراء فمن لم يتبرأ من الصحابة لم يتول القرابة بل يكون قد نصب لهم العداوة قيل له هب أن هذا يسمى نصباً فلم قلت إن هذا محرم فانه لا دلالة على ذم النصب بهذا التفسير كما أنه لا دلالة على ذم الرفض بمعنى موالاة أهل البيت. اذا كان الرجل موالياً لهم. ولقد أحسن القائل:

إذا كان نصباً ولاء الصحاب ... فاني كما زعموا ناصبي
وإن كان رفضاً ولاء الجميع ... فلا برح الرفض من جانبي

والرفض هو بغض أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قيل للامام أحمد من الرافضي؟ قال الذي يسب أبا بكر وعمر وبهذا سميت الرافضة فانهم رفضوا زيد بن علي لما تولى الخليفتين أبا بكر وعمر لبغضهم لهما. فالمبغض لهما هو الرافضي.

وأصل الرفض من المنافقين الزنادقة فانه ابتدعه بن سبأ الزنديق وأظهر الغلو. فى على بدعوى الامامة والنص عليه وادعى العصمة له. ولهذا لما كان مبدؤه من النفاق قال بعض السلف حب أبى بكر وعمر إيمان وبغضهما نفاق واعلم أن الأصل في الحكم على الأشياء وتسميتها هو باعتبار أن الألفاظ نوعان مذكور فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وكلام أهل الاجماع فهذا يجب اعتبار معناه وتعليق الحكم به. فان كان المذكور به مدحاً استحق المدح وإن كان ذماً استحق الذم. وإن أثبت شيئاً وجب إثباته وإن نفي شيئاً وجب نفيه لأن كلام الله حق وكلام رسوله حق وكلام أهل الاجماع حق. وحينئذ فمن دخل فى اسم مذموم فى الشرع كان مذموماً كاسم الكافر والمنافق والملحد ونحو ذلك ومن دخل فى اسم محمود فى الشرع كان محموداً كاسم المؤمن والتقي والصديق وما أشبه ذلك.

وأما الألفاظ التى ليس لها أصل فى الشرع فتلك لا يجوز تعليق المدح والـذم والاثبـات والنفي على معنـاهـا . والألفـاظ التى يعـارض بها النفاة النصـوص هي من هذا الضـرب كلفـظ الجسم والحيـز والجهـة والجـوهـر والعـرض والـتركيب . وقـول المؤلف . وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير هذا الموضع . معناه أنه قد استوفى الكلام على مسألة الرفض والنصب كما أوضـح القـول فى بطـلان تماثـل الأجسـام وتهافت حجج القائلين بذلك : والـبراهـين العقلية والنصوص السمعية الدالة على عدم تماثلها : قد بسط الكـلام على هذا فى غير هذه الـرسـالـة كما في كتـابيه منهاج السنة وموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول .

قـــــوله :

وأيضا فالاعتماد بهذا الطريق على نفي التشبيه اعتماد باطل . وذلك أنـه إذا ثبت تماثـل الأجسـام فهم لا ينفـون ذلك إلا بالحجة التي ينفون بها الجسم . وإذا ثبت أن هذا يستلزم الجسم وثبت امتنـاع الجسم . كان هذا وحده كافياً في نفي ذلك لا يحتاج نفي ذلك إلى نفي مسمى «التشبيه» لكن نفي التجسيم يكون مبنياً على نفي هذا التشبيه . بأن يقال لو ثبت له كذا وكذا لكان جسما . ثم يقال . والأجسام متماثلة ، فيجب اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع . وهذا ممتنع عليه . لكن حينئذ يكون من سلك هذا المسلك معتمـداً في نفي التشبيـه على نفي التجسيم . فيكـون أصـل نفيـه نفي الجسم . وهذا مسلك آخر سنتكلم عليه إن شاء الله تعالى .

ش : يقول الشيخ بالاضافة إلى ما سبق من الرد على النفاة وإبطال مقـدمـاتهم التى جعلوها أساساً لنفي الصفات : يقال لهم : اعتمادكم على نفي التشبيـه بطـريق نفي الصفـات لاستلزامهـا الجسميـة وكون الأجسام متـماثلة اعتـماد باطل : لأنه على فرض أن الأجسام متماثلة : فأنتم لا تنفون الصفـات إلا بالحجـة التى تنفـون بها الجسمية : وإذا ثبت انتفاء الصفات وانتفاء الجسمية كان هذا وحده كافياً فى نفي التشبيه لا يحتاج فى الأمر إلى

نفي مدلول التشبيه الذي هو تماثل الجسمين بحيث يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه لكن في هذه الحال يكون من اعتمد على نفي الجسمية لاستلزامها التشبيه نافياً للجسم أولا ثم نافياً للتشبيه لانتفاء الجسمية وهذا مسلك غير المسلك الأول الذي هو الاعتماد في نفي الجسمية على نفي الصفات وكون الأجسام متماثلة : فان المسلك الأخير هو الاعتماد فى نفي التشبيه على امتناع الجسمية فقط : وسيتكلم المؤلف على هذا المسلك عند قوله فصل : وأفسد من ذلك ما يسلكه نفاة الصفات أو بعضها .

قـــــوله :

وإنما المقصود هنا أن مجرد الاعتماد في نفي ما ينفى على مجرد نفي التشبيه لا يفيد. إذ ما من شيئين إلا ويشتبهان من وجه ويفترقان من وجه. بخلاف الاعتماد على نفي النقص والعيب، ونحو ذلك مما هو سبحانه مقدس عنه. فان هذه طريقة صحيحة. وكذلك إذا أثبت له صفات الكمال ونفي مماثلة غيره له فيها فان هذا نفي المماثلة فيما هو مستحق له وهذا حقيقة التوحيد. وهو أن لا يشاركه شيء من الأشياء فيما هو من خصائصه، وكل صفة من صفات الكمال فهو متصف بها على وجه لا يماثله فيها أحد. ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها. إثبات ما وصف الله به نفسه من الصفات، ونفي مماثلته لشيء من المخلوقات.

ش : يقول المؤلف إنما المراد فى هذا البحث هو بيان فساد طريقة النفاة المعطلة حيث اعتمدوا في نفي مشابهة الله لخلقه على النفي المجرد عن إثبات الصفات، فان هذا طريق فاسد وإنما الطريق الصحيح إثبات حقائق أسماء الله وصفاته ونفي مماثلته لشيء من مخلوقاته : وكونه سبحانه يتفق مع المخلوق فى الاسم وفى المعنى الكلي المشترك لا يلزم منه مماثلته لخلقه : فانه ما من موجودين إلا وبينهما اتفاق من وجه واختلاف من وجه آخر : ألا ترى : أنه إذا قيل بين الانسان والفرس تشابه من جهة أن هذا

حيوان وهذا حيوان واختلاف من جهة أن هذا ناطق وهذا صاهل وغير ذلك من الأمور كان ذلك صحيحاً: فان بين الصفتين من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الذاتين: فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه منزه عن صفات النقص مطلقاً ومنزه عن أن يماثله غيره فى صفات كماله: وحينئذ فإثبات أسماء الله وصفاته مع نفي المماثلة لأحد من مخلوقاته هو محض التوحيد فلا يشركه أحد فى خصائصه وأوصافه المضافة إليه وله المثل الأعلى: فكل وصف كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو متصف به على وجه لا يماثله فيه أحد: وكل وصف نقص وعيب فهو منزه عنه: ومن أجل أن الاعتماد في نفي التشبيه على الاثبات البرىء من التمثيل والنفي الخالي من التعطيل هو الموافق لصريح كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهو مقتضى العقول السليمة والفطر المستقيمة من أجل ذلك كان مذهب سلف الأمة وأئمتها وصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فى النفي والاثبات: فالله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال تعالى ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ فبين سبحانه أنه لم يكن أحد كفواً له: وقال تعالى ﴿هل تعلم له سمياً﴾ فأنكر أن يكون له سمي وقد بين سبحانه أن لا مثل له في صفاته ولا أفعاله فان التماثل فى الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات فان الذاتين المختلفتين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما: إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات فان الصفة تابعة للموصوف بها والفعل أيضاً تابع لفاعله: بل هو مما يوصف به الفاعل.

قوله:

فان قيل إن الشيء إذا شابه غيره من وجه جاز عليه من ذلك الوجه. ما جاز عليه ووجب له ما وجب له، وامتنع عليه ما امتنع عليه، قيل هب أن الأمر كذلك ولكن اذا كان ذلك القدر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الرب سبحانه ولا نفي ما يستحقه لم يكن ممتنعا كما إذا

قيل انه موجود حي عليم سميع بصير وقد سمى بعض عباده حيا سميعاً عليما بصيراً، قيل لازم هذا القدر المشترك ليس ممتنعا على الرب تعالى، فان ذلك لا يقتضي حدوثاً ولا إمكاناً ولا نقصاً، ولا شيئاً مما ينافي صفات الربوبية وذلك أن القدر المشترك هو مسمى الوجود أو الموجود، أو الحياة أو الحي، أو العلم أو العليم أو السمع أو البصر، أو السميع أو البصير، أو القدرة أو القدير، والقدر المشترك مطلق كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر، فلم يقع بينهما اشتراك، لا فيما يختص بالممكن المحدث ولا فيما يختص بالواجب القديم، فان ما يختص به أحدهما يمتنع إشتراكهما فيه فاذا كان القدر المشترك الذي فيه صفة كمال كالوجود والحياة والعلم والقدرة ولم يكن في ذلك شيء مما يدل على خصائص المخلوقين. كما لا يدل على شيء من خصائص الخالق، لم يكن في إثبات هذا محذور أصلا، بل إثبات هذا من لوازم الوجود، فكل موجودين لابد بينهما من مثل هذا ومن نفى هذا لزمه تعطيل وجود كل موجود.

ش: يعني ان قال قائل: إن الموجودين إذا تشابها من وجه جاز على أحدهما من ذلك الوجه ما جاز على الآخر ووجب له من ذلك الوجه ما وجب للآخر وامتنع عليه من ذلك الوجه ما امتنع على الآخر قيل له افرض ان ذلك صحيح ولكن إذا كان لازم ذلك القدر المشترك الذي حصل فيه الاتفاق ليس فيه محذور وليس ممتنعاً ولا يستلزم نفي صفات كمال ولا إثبات أوصاف نقص كما إذا قيل عن الله سبحانه إنه موجود حي عليم قدير سميع بصير والمخلوق يوصف بهذه الصفات فقد اتفقا فى المعنى العام وهو القدر المشترك وهو مدلول الوجود ضد العدم والموجود ضد المعدوم ومدلول الحي ضد الميت والحياة ضد الموت ومدلول العليم ضد الجاهل والعلم ضد الجهل ومدلول القدير ضد العاجز والقدرة ضد العجز: ومدلول السميع ضد الأصم والسمع ضد الصمم ومدلول البصير ضد الأعمى والبصر ضد العمى: فقد اتفقا فى مدلول الاسم ومدلول الصفة وذلك هو القدر المشترك

وهو معنى عام كلي ولم يوجب ذلك أن يشترك المحدث الممكن وهو المخلوق مع الواجب القديم وهو الله سبحانه فيما هو من خصائص أحدهما: بل ما أضيف إلى واحد منهما فهو مختص به وهو على ما يليق به فان الصفة تتبع الموصوف: فإذا كان القدر المشترك كما لا نقص فيه: ولم يحصل اشتراك فيما يختص بكل منهما لم يكن فى إثبات ذلك القدر محذور: بل إثباته من مقتضيات الوجود: فان الموجودات لابد بينها من الاتفاق فى المعنى العام ومن نفى هذا المعنى المشترك لزمه تعطيل سائر الموجودات عن الوجود.

قوله :

ولهذا لما اطلع الأئمة على أن هذه حقيقة قول الجهمية سموهم معطلة، وكان جهم ينكر أن يسمى الله شيئاً، ولربما قالت الجهمية هو شيء لا كالأشياء. فاذا نفى القدر المشترك مطلقاً، لزم التعطيل العام، والمعاني التى يوصف بها الرب تعالى، كالحياة والعلم والقدرة، بل والوجود والثبوت والحقيقة ونحو ذلك تجب لوازمها، فان ثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم، وخصائص المخلوق التي يجب تنزيه الرب عنها ليست من لوازم ذلك أصلا. بل تلك من لوازم ما يختص بالمخلوق من وجود وحياة وعلم، ونحو ذلك، والله سبحانه منزه عن خصائص المخلوقين وملزومات خصائصهم، وهذا الموضع من فهمه فهماً جيداً وتدبره زالت عنه عامة الشبهات وانكشف له غلط كثير من الأذكياء في هذا المقام، وقد بسط هذا في مواضع كثيرة. وبين فيها: ان القدر المشترك الكلى لا يوجد في الخارج إلا معينا مقيداً وأن معنى اشتراك الموجودات في أمر من الأمور هو تشابهها من ذلك الوجه، وان ذلك المعنى العام يطلق على هذا وهذا لأن الموجودات في الخارج لا يشارك أحدها الآخر في شيء موجود فيه، بل كل موجود متميز عن غيره بذاته وصفاته وأفعاله.

ش : يعنى ومن أجـل أن من نفى اشـتراك المـوجـودات فى المعنى العـام يلزمـه التعطيـل المحض لكـل موجود من أجل ذلك كان أهل السنة والجماعة يسمون نفاة صفات الله معطلة : لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله عن الوجود : وكان رأسهم الجهم ينكر أن يسمى الله شيئاً زعماً منه أن إثبات كون الله شيئاً يلزم منـه مشـابهتـه لسـائـر الأشيـاء ، وبعـداً وسحقاً لتنزيه مدلـولـه ، تعطيل الذات العلية عن الوجود ، وأتباع الجهم قد يتحاشون فى بعض الأحيـان عن قول الجهم بإنكـار كون الله شيئـاً فيقـولون هو شيء لا كالأشيـاء وهـذه الكلمـة حق فالله سبحـانه شيء لا يماثله أحد من خلقه : ولكن يقـال لهم هلا أثبتم أسـماء الله وصفـاتـه الواردة فى كتابه وعلى لسان رسـولـه وقلتم بنفى المـماثلة كما قلتم إنـه شيء لا كالأشياء ، والحقائق التي يوصف بها الرب من حياة وعلم وقدرة ووجود وذات ونحو ذلك ككونه شيئاً ثابتـاً هذه الحقـائق تجب لوازمهـا ولـوازمهـا هي صفات الحي الموجود الرب الكـامـل : فالـذات والحقيقـة والوجود ملزومات والصفات لازمها : وثبوت الملزوم يوجب ثبـوت الـلازم ولازم صفـات الله الكمال كما أن لازم أوصاف المخلوق النقص : ومن أدرك هذه الحقائق وميز ما تشترك فيه وما تختلف فيه زالت عنه الشبهة التى التبس عليه الأمر بسببها وانكشف له غلط كثير من الأذكيـاء الـذين غلطـوا فى باب أسـماء الله وصفـاتـه لالتباس هذه الحقائق عليهم والأمـور المـوجـودة في الخـارج لا اشـتراك فيهـا . وإنما الاشتراك فى المعنى العام الذي يطلق على هذه الحقيقة وهذه الحقيقة . وليس في الخارج ذات موجـودة تشـترك فيهـا المـوجـودات . أمـا المـوجودات التى فى الخارج فبعضها متميز عن بعض فى الذات والصفات والأفعال . وقد بسط المؤلف هذا البحث فى عدد من كتبـه . ومنهـا رسـالته التى رد فيها على أهل القول بوحدة الوجود .

قـــــوله :

ولـما كان الأمـر كذلـك كان كثـير من الناس متناقضاً في هذا المقام ،

فتارة يظن أن إثبات القدر المشترك يوجب التشبيه الباطل ، فيجعل ذلك حجة فيما يظن نفيه من الصفات ، حذراً من ملزومات التشبيه . وتارة يتفطن إلى أنه لابد من إثبات هذا على تقدير فيجيب به فيما يثبته من الصفات لمن احتج به من النفاة .

ش : يقول الشيخ ولكون الموجودات في الخارج يتميز بعضها عن بعض وإنما اشتراكها فى المعنى العام الموجود فى الذهن لذلك تجد بعض طوائف المبتدعة كالأشاعرة يجمعون بين الأمرين المتناقضين فطوراً ينفون الاشتراك فى المعنى العام خشية التشبيه ظناً منهم أن الصفات تقتضي المشابهة . فملزومات التشبيه على زعمهم هي الصفات ولازمها هو التشبيه فيجحدونها لهذا الزعم الموهوم . وطوراً يثبتون الاتفاق فى القدر المشترك بين الخالق والمخلوق وأن ذلك لا يوجب أن تكون الصفة المضافة إلى الله مثل الصفة المضافة إلى المخلوق وإن حصل اشتراك واتفاق فى المعنى الكلي كما يقولون ذلك بالنسبة للصفات السبع التى يثبتون . وحينما ينازعهم الجهمي أو المعتزلي فى اثباتهم للصفات السبع يجيبونه قائلين : إن الاتفاق فى المعنى العام لا يوجب المماثلة . فلله ما يليق به وللمخلوق ما يليق به والقدر المشترك بينهما لا يقتضي المشابهة فيما يخص واحداً منهما .

قوله :

ولكثرة الاشتباه فى هذا المقام وقعت الشبهة فى أن وجود الرب . هل هو عين ماهيته . أو زائد على ماهيته ؟ وهل لفظ (الوجود) مقول بالاشتراك اللفظى أو التواطؤ . أو التشكيك . كما وقع الاشتباه فى إثبات الأحوال ونفيها . وفى أن المعدوم . هل هو شىء أم لا ؟

وفى وجود الموجودات . هل هو زائد على ماهيتها أم لا ؟ وقد كثر من أئمة النظار الاضطراب والتناقض فى هذه المقامات . فتارة يقول أحدهم القولين المتناقضين . ويحكى عن الناس مقالات ما قالوها . وتارة

يبقى فى الشك والتحير. وقد بسطنا الكلام فى هذه المقامات. وما وقع من الاشتباه والغلط والحيرة فيها لأئمة الكلام والفلسفة بما لا تتسع له هذه الجمل المختصرة. وبينا أن الصواب هو : أن وجود كل شيء فى الخارج هو ماهيته الموجودة فى الخارج بخلاف الماهية التى فى الذهن فإنها مغايرة للموجود فى الخارج. وأن لفظ «الذات» و«الشىء» و«الماهية» و«الحقيقة» ونحو ذلك. ألفاظ كلها متواطئة. فإذا قيل. . إنها مشككة لتفاضل معانيها. فالمشكك نوع من المتواطىء العام الذى يراعى فيه دلالة اللفظ على القدر المشترك. سواء كان المعنى متفاضلا فى موارده أم متماثلا. وبينا أن المعدوم شىء أيضا فى العلم والذهن. لا فى الخارج» فلا فرق بين الثبوت والوجود، لكن الفرق ثابت بين الوجود العلمي والعينى، مع أن ما فى العلم ليس هو الحقيقة الموجودة، ولكن هو العلم التابع للعلم القائم به وكذلك الأحوال التى تتماثل فيها الموجودات وتختلف، لها وجود فى الأذهان، وليس فى الأعيان إلا الاعيان الموجودة وصفاتها القائمة بها المعينة فتتشابه بذلك وتختلف به، وأما هذه الجملة المختصرة، فإن المقصود بها التنبيه على جمل مختصرة جامعة من فهمها علم قدر نفعها، وانفتح له باب الهدى، وأمكنه إغلاق باب الضلال ثم بسطها وشرحها له مقام آخر إذ لكل مقام مقال .

ش : يقول الشيخ ومن أجل حصول الاتفاق بين الموجودات في القدر المشترك، حصل الاشكال فى هذه المسائل الخمس وكثر الاضطراب والتناقض من أئمة الفلسفة وأساطين الكلام. فطوراً تجد أحدهم يقول فى المسألة قولين متناقضين ويحكي عن غيره من أرباب الكلام أقوالا لم تصدر عنهم وطوراً يبقى الواحد منهم حائراً لا يستطيع الجزم برأي معين. وذكر المؤلف انه قد بسط البحث فى هذه المسائل فى كتبه المطولة وذكر هنا رأياً مختصراً جامعاً شافياً فى هذه المسائل. وهوكما يلي: أولا : الصحيح أن وجود الرب سبحانه هوعين ماهيته في الخارج بل الصواب أن وجود كل

موجود في المشاهد هو عين ماهيته فلا فرق بين الوجود والماهية في المشاهدة. بخلاف الماهية التي في الذهن. فانها مغايرة للموجود في الخارج إذ الماهية التي في الذهن عامة مشتركة والماهية التي في الشاهد معينة خاصة. ثانياً: الصواب في لفظ الذات ولفظ الشيء والماهية ونحو ذلك كالحياة أنها متواطئة لتوافقها في اللفظ والمعنى، ومن أطلق عليها اسم المشكك فهو مصيب. فان المشكك نوع من المتواطيء فان الحقائق إما أن تتساوى في محالها وإما أن تتفاضل. فالأول هو التواطؤ العام الذي يلاحظ فيه وجود القدر المشترك بين الحقائق مع قطع النظر عن تساويها أوتفاوتها، والثاني هو المسمى بالمتواطيء المشكك. ثالثا: الصواب أن المعدوم شيء بالنسبة للعلم به وكونه متصوراً في الذهن أما أنه موجود في المشاهد فلا. والثبوت والوجود بمعنى واحد. والوجود الذهني يخالف الوجود في الشاهد والتصور الذهني للشيء ليس هو عين حقيقته وإنما هو تابع للعلم القائم بتلك الحقيقة المعلومة. رابعاً: الصواب أن الأحوال لا وجود لها إلا في الذهن أما في المشاهدة فلا يوجد إلا الذوات وصفاتها القائمة بها، والأحوال عند القائلين بها هي كون الصفة قائمة بالذات فهي عبارة عن نسبة الصفة إلى الموصوف. والأحوال تختلف وتتشابه باختلاف الذوات وصفاتها والجواب على المسألة الخامسة هو الجواب على المسألة الأولى فالصواب أن الوجود الخارجي لسائر الموجودات هو عين ماهيتها الخارجية. وبين رحمه الله أن هذه الجمل الموجزة التي ذكر في هذه الرسالة المختصرة لا تتسع لبسط القول في هذه المقامه العظيمة. ومقام الاختصار غير مقام الاطالة والاسهاب ولكل مقام مقال كما قرره أهل البيان. وأنا أذكر لك هنا خلاصة مما بسطه المؤلف في غير هذه الرسالة تكون كالتفصيل لما اسلفت من الشرح الموجز لهذه المسائل. فالذي عليه أهل السنة والجماعة وسائر العقلاء أن ماهية كل شيء عين وجوده وأنه ليس وجود الشيء قدراً زائداً على ماهيته بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هو الشيء وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته. قال الشيخ: فيقال إن أريد بالذات المجردة التي يقربها نفاة الصفات فالصفات

زائدة عليها، وإن أريد بالذات الموجودة فى الخارج فتلك لا تكون موجودة إلا بصفاتها اللازمة والصفات ليست زائدة على الذات المتصفة بالصفات وإن كانت زائدة على الذات التى يقدر تجردها عن الصفات. وقد ظن طائفة أن من قال: الوجود متواطىء عام فانه يقول وجود الخالق زائد على حقيقته وطائفة ظنت أن لفظ الوجود مقول بالاشتراك اللفظي وهذه مكابرة للعقل فان هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم كما يقال الموجود ينقسم إلى واجب وممكن وقديم وحادث. ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام. فان تفاضل المعنى المشترك الكلي لا يمنع أن يكون أصل المعنى مشتركا بين اثنين كما أن معنى السواد مشترك بين هذا السواد وهذا السواد وبعضه أشد من بعض. والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف أن المعدوم ليس فى نفسه شيئاً وأن ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد وقد دل عى ذلك الكتاب والسنة والاجماع القديم. قال الله تعالى لزكريا: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا﴾ وقال تعالى: ﴿أولا يذكر الإنسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا﴾ وقال تعالى: ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا﴾ ولو كان المعدوم شيئا لكان التقدير لا يظلمون موجوداً ولا معدوماً: والمعدوم لا يتصور أن يظلموه ونظائر ذلك كثير فمتصورات العقل ومقدراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته كما يتصور المعدومات والممتنعات ويقدر ما لا وجود له البتة مما يمكن أولا يمكن كتصور جبل ياقوت وبحر زئبق وانسان من ذهب وفرس من حجر فثبوت الشيء فى العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه فى الخارج بل العالم يعلم الشيء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته فى الخارج ثبوت ولا وجود أصلا. قال الشيخ: وإنما نشأ الاشتباه على هؤلاء والله أعلم من حيث رأوا أن الله سبحانه يعلم ما لم يكن قبل كونه وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فرأوا أن المعدوم الذي يخلقه ويتميز فى علمه وارادته وقدرته شيء ثابت وظنوا ذلك التمييز ذات له ثابتة وليس الأمر كذلك وإنما هو متميز فى علم الله. والواحد منا يعلم الموجود والمعدوم الممكن والمعدوم المستحيل

ويعلم ما كان كآدم والأنبياء ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكـون كما يعلم ما أخـبر الله به عن أهـل النـار فى قوله تعـالى : ﴿ولـو ردوا لعـادوا لما نهوا عنـه﴾ وأنهم ﴿لـو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ وانـه ﴿لـو كان فيهـما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ونحو ذلك . فثبوت هذه الأمـور فى العلم والكتـاب والكلام ليس هو ثبوتها فى الخارج عن ذلك وهـو ثبـوت حقيقتهـا التى هي هي ، فينبغي للعـاقـل أن يفـرق بين ثبـوت الشيء ووجـوده نفسـه وبـين ثبـوتـه ووجـوده فى العلم فان ذاك هو الـوجود الذهنى والعلمي وما من شيء إلا له هذان الثبوتان .

قـــــوله :

والمقصـود هنـا أن الاعتماد على مثل هذه الحجة فيما ينفى عن الرب وينزه عنه ، كما يفعله كثير من المصنفين خطأ لمن تدبر ذلك ، وهذا من طرق النفي الباطلة .

ش : يعنى والمهم أن الاعتـماد فى تنـزيه الله عن النقائص على نفى صفـات الكـمال عنـه طريق باطـل ومسلك غير صحيـح كما أن الاعتماد فى إثبات الصفات على نفي التشبيه لا يكفي ما لم تكن الصفة واردة فى كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ كما سيأتى قريبا إن شاء تعالى .

قـــــوله :

فصـل وأفسـد من ذلك ما يسلكه نفاة الصفات أو بعضها إذا أرادوا أن ينـزهـوه عما يجب تنـزيهـه عنه ، مما هو من أعظم الكفر ، مثل أن يريدوا تنـزيهـه عن الحـزن والبكاء ونحو ذلك ، ويريدون الرد على اليهود الذين يقولون . إنه بكى على الطوفان حتى رمد . وعادته الملائكة والذين يقولون بالاهيـة بعض البشـر وانـه الله فان كثـيراً من الناس يحتج على هؤلاء بنفي التجسيم والتحيز ونحو ذلك ، ويقولون لو اتصف بهذه النقائص والآفات لكـان جسـماً أو متحيزاً وذلك ممتنع ، وبسلوكهم مثل هذه الطريق استظهر عليهم الملاحدة نفاة الأسماء والصفات .

ش : يقول الشيخ : وأفسد من الطريق السابق وهو الاعتماد فى تنزيه الله على مجرد النفي . أفسد من ذلك الطريق الذي يعتمدون عليه فى تنزيه الله عن النقائص والعيوب كالحزن والبكاء واللغوب والقول بأنه استراح بعد خلقه السموات والأرض والقول بأن يده مغلوله وأشباه هذه الأقوال التى هي من أعظم الكفر وأشنع الضلال . إذا أراد نفاة الصفات أو نفات بعضها أن ينزهوا الله سبحانه عن هذه النقائص وأن يردوا على أصحابها . اعتمدوا فى ردهم على نفي الجسمية والتحيز ونحو ذلك كالتركيب . فمثلا : إذا أرادوا أن يردوا على اليهود القائلين بأن الله بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه ثم عادته الملائكة إلى غير ذلك من أوصاف النقص التى وصفوا الله بها . أوعلى النصارى القائلين بالهية عيسى . أوعلى غلاة الشيعة القائلين بالهية على . قالوا لوكان الله متصفا بهذه الصفات التي ذكرتم لكان جسما أومتحيزاً والله منزه عن أن يكون جسما أومتحيزاً . وبسلوكهم هذا المسلك الفاسد . تطاول عليهم الفلاسفة ونحوهم من الملاحدة . قال الشيخ : ومن هنا دخلت الملاحدة الباطنية على المسلمين حتى ردوا عن الاسلام خلقا عظيما فصاروا يقولون لمن نفى شيئاً عن الرب مثل من ينفي بعض الصفات ، أو جميعها أو الأسماء : لم نفيت هذا؟ فيقول لأن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم فيقولون وهذا اللازم يلزمك فيما أثبته فيحتاج أن يوافقهم على النفي شيئاً بعد شيء حتى ينتهى أمره إلى أن لا يعرف الله بقلبه ولا يذكره بلسانه ولا يعبده ولا يدعوه ، فالملاحدة ألزموهم فى النصوص نصوص المعاد نظير ما ادعوه فى نصوص الصفات : فقالوا لهم نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول جاء بمعاد الأبدان وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه : فكيف يجوز أن يكون ما أخبر به من الصفات ليس كما أخبر به من المعاد وما أخبر به من المعاد هو على ما أخبر به؟

قال الشيخ ولهذا كان ابن النفيسة المتطبب الفاضل يقول ليس إلا مذهبان مذهب أهل السنة أومذهب الفلاسفة : فأما هؤلاء المتكلمون

فقولهم ظاهر التناقض والاختلاف : يعني وأهل السنة أثبتوا كل ما جاء به الرسول وأولئك جعلوا الجميع تخييلا وتوهيماً ومعلوم بالأدلة الكثيرة السمعية والعقلية فساد مذهب هؤلاء ، ومذهب الملاحدة . فتعين أن يكون الحق مذهب السلف أهل السنة والجماعة .

قــــوله :

فإن هذه الطريقة لا يحصل بها المقصود لوجوه :

أحدها : أن وصف الله تعالى بهذه النقائص والآفات أظهر فساداً فى العقل والدين من نفى التحيز والتجسيم ، فإن هذا فيه من الاشتباه والنزاع والخفاء ما ليس فى ذلك ، وكفر صاحب ذلك معلوم بالضرورة من دين الإسلام والدليل معرف للمدلول ومبين له ، فلا يجوز أن يستدل على الاظهر الأبين بالاخفى ، كما لا يفعل مثل ذلك فى الحدود .

الوجه الثانى : أن هؤلاء الذين يصفونه بهذه الصفات يمكنهم أن يقولوا . نحن لا نقول بالتجسيم والتحيز ، كما يقوله من يثبت الصفات وينفى التجسيم فيصير نزاعهم مثل نزاع مثبتة الكلام وصفات الكمال . فيصير كلام من وصف الله بصفات الكمال ومن وصفه بصفات النقص واحداً ويبقى رد النفاة على الطائفتين بطريق واحد وهذا فى غاية الفساد .

الثالث : أن هؤلاء ينفون صفات الكمال بمثل هذه الطريقة ، واتصافه بصفات الكمال واجب ثابت بالعقل والسمع . فيكون ذلك دليلا على فساد هذه الطريقة .

ش : يعنى أن الاعتماد فى تنزيه الله على نفى التجسيم والتحيز ونحو ذلك لا يحصل به المراد لأمور :

أحدها : أن وصف الرب بهذه الآفات والعيوب أظهر فساداً فى المعقول الصريح والمنقول الصحيح من وصفه بالتجسيم والتحيز فإن وصفه

بهذه النقائص أمر واضح الفساد وبين البطلان لكل ذى عقل سليم وفطرة مستقيمة. وكفر صاحبه واضح لا إشكال فيه بينما التجسيم والتحيز والتركيب ألفاظ مجملة تحتمل الحق والباطل لما فيها من الاشتباه وخفاء المراد وحينئذ لا يجوز الاستدلال بها فيه الاشتباه وخفاء على ما هوواضح بين، فشأن الدليل إيضاح المدلول وتعريفه. فهوكالحد الذى يشرح المحدود ويعرفه تعريفاً واضحاً.

ثانيها : أن الذين يصفون الله بهذه النقائص والعيوب يستطيعون أن يقولوا : نحن نصف الله بهذه الأوصاف دون أن نصفه بالجسمية والتحيز، وإذا أجابوا بهذا الجواب كان النزاع مع من يثبت أوصاف النقص كالنزاع مع من يثبت أوصاف الكمال من كلام وعلم وقدرة إلى غير ذلك من الصفات ويكون رد المعطلة على الجميع واحداً، بأن يقولوا : لا نصف الله بالصفات الواردة فى الكتاب والسنة كما لا نصفه بأوصاف النقص : لأنه لا يتصف بهذه أو تلك إلا جسم متحيز وهذا ممتنع فى حق الله، فتبين بهذا فساد الطريق الذي سلكوه فى ردهم على من يصف الله بأوصاف النقص.

ثالثها : أن هؤلاء المعطلة ينفون عن الله أوصاف الكمال بهذا الطريق الفاسد فى حين أن الرب سبحانه متصف بأوصاف الكمال ونعوت الجلال؛ كما وردت بذلك النصوص وكما هو مقتضى العقل السليم والفطرة المستقيمة؛ فيكون نفيهم هذا دليلا على فساد طريقتهم : وأنهم لم يستفيدوا بها إحقاق حق وإنما استفادوا إبطال ما هو حق ثابت بالعقل والشرع.

قــــوله :

الرابع : ان سالكي هذه الطريقة متناقضون، فكل من أثبت شيئا منهم ألزمه الآخر بما يوافقه فيه من الاثبات. كما أن كل من نفى شيئاً منهم ألزمه الآخر بما يوافقه فيه من النفي. فمثبتة الصفات كالحياة والعلم

والقـدرة والكـلام والسمع والبصر. إذا قال لهم النفاة كالمعتزلة هذا تجسيم لأن هذه الصفـات أعـراض والعـرض لا يقـوم إلا بالجسم أولانا لا نعرف موصوفاً بالصفات إلا جسماً قالت لهم المثبتة: وأنتم قد قلتم إنه حي عليم قدير. وقلتم ليس بجسم وأنتم لا تعلمون موجوداً حياً عالماً قادراً إلا جسماً فقد أثبتموه على خلاف ما علمتم. فكذلك نحن وقالوا لهم أنتم أثبتم حياً عالماً قادراً بلا حياة ولا علم ولا قدرة. وهذا تناقض يعلم بضرورة العقل. ثم هؤلاء المثبتون إذا قالوا لمن أثبت أنه يرضى ويغضب ويحب ويبغض أو من وصفه بالاستواء والنزول والاتيان والمجيء. وبالوجه واليد ونحو ذلك إذا قالوا: هذا يقتضي التجسيم. لانا لا نعرف ما يوصف بذلك إلا ما هو جسم.

قالت المثبتـة فأنتم قد وصفتمـوه بالحيـاة والعلم والقـدرة والسمـع والبصـر والكـلام وهـذا كهـذا. فإذا كان هذا يوصف به الجسم فالآخـر كذلـك. وإن أمكن أن يوصف بأحـدهما ما ليس بجسم فالآخـر كذلـك فالتفريق بينهما تفريق بين المتماثلين.

ش: يقول المؤلف: الرابع من الأمور التى يتضح بها فساد المسلك المـذكـور: هو أن هؤلاء المبتـدعـين الـرادين على من يصف الله بأوصـاف النقص بنفي التجسيم والتحيـز متنـاقضـون ومتضـاربة أقوالهم فمن يثبت شيئـاً من الصفـات يرد على من ينـازعه في إثباتها قائلاً: أنت توافقني على إثبـات الأسـماء: ومن ينفي شيئـاً من الصفات يقول له من ينفي الصفات كلها أنت توافقني في نفي شيء من الصفات ثم شرح الشيخ هذه القضية بمناقشة الأشعري مع المعتزلي بقوله فمثبتة الصفات كالحياة والعلم والقدرة والكـلام والسمـع والبصـر إلى آخـره: وخـلاصة ذلك أن المعتزلة إذا قالوا للأشاعرة أنتم تثبتون الصفات السبع وهي أعراض والأعراض حادثة فهي لا تقوم إلا بجسم حادث ولا يعلم في المشاهد متصف بالصفات إلا ما هو جسم حادث. قال الأشاعرة وأنتم أيها المعتزلة تثبتون الأسماء لله مع أنه لا

يعلم فى المشـاهـد مسمى حيـا عليماً قديراً إلا ما هوجسم ، فقد أثبتم ذلك على خلاف ما تعلمـونـه فى المشـاهـد ، فنحن إذاً نثبت الصفات السبع لله على خلاف ما هومعلوم في المشـاهـد : ويقـولـون أيضـاً أنتم أيهـا المعتزلة تثبتون أسماء محضة لا تتضمن صفات وهذا معلوم الفساد بالضرورة، فإن الحي هو المتصف بالحياة ، والعليم هو المتصف بالعلم وهكذا سائر الأسماء .

ثم إن هؤلاء المثبتـين للصفـات السبـع إذا قالـوا لمن يثبت الصفات الذاتية والفعليـة والاختيـاريـة والخـبر يـة نحن لا نجـد في الشـاهـد متصفـا بهذه الصفات إلا ما هو جسم ، والأجسام متماثلة فمن أثبتها لله فقد مثله بخلقه إذا قالـوا هذه المقـالـة قال لهم سائـر أهـل الاثبـات أنتم قد أثبتم الصفات السبـع فما نفيتم هو مثـل ما أثبتم فإن كان الـذى أثبتمـوه يقتضى الجسمية والمماثلة فالـذي نفيتمـوه مثله وإلا فلا ، وحينئـذ فتفـريقكم بين الصفـات السبـع وبـين ما عداهـا تفـريق بين متـماثلين ، وهـذا خلاف ما تقتضيـه المعقولات بل هو خلاف المعقول والمنقول وقد سبقت الاشارة إلى ذلك .

قـــــوله :

ولهذا لما كان الرد على من وصف الله تعالى بالنقائص بهذه الطريق طريقاً فاسداً لم يسلكه أحد من السلف ولا الأئمة ، فلم ينطق أحد منهم في وصف الله بالجسم : لا نفيـاً ولا إثبـاتـا : ولا بالجوهر والتحيز ونحو ذلك : لانها عبارات مجملة لا تحق حقا ولا تبطل باطلا : ولهذا لم يذكر الله في كتابه فيما أنكره على اليهود وغيرهم من الكفار ما هو من هذا النوع : بل هذا هو من الكلام المبتدع الذى أنكره السلف والأئمة .

ش : يقـول الشيـخ ومن أجـل أن رد المبتـدعـة على من يصف الله بالبكاء والحزن ونحو ذلك من صفات النقص ، بأن هذه الأوصاف لا تقوم إلا بجسم متحيـز: من أجـل أن هذا الطـريق طريق غير صحيح لم يسلكه أحـد من سلف الأمـة من الصحـابة والتابعين وأئمة السنة : فلم يقولوا بأن

الله جسم أو ليس بجسم . وهكذا بالنسبة للجوهر والتحيز ونحوه كالتركيب والعـرض ، وذلـك أن هذه ألفاظ مستحدثة مجملة لا يحصل بواسطتها بيان حق ولا دحض باطل ، لذلك لم ترد فى القرآن العزيز فى رد الله سبحانه على اليهـود والنصـارى والمشـركـين الـذين نسبـوا إليـه النقائص والعيوب التى يتقـدس عنهـا ، وسلف الأمـة وأئمـة السنـة قد أنكروا على المبتدعين هذه الألفاظ المجملة وبينوا ما تحتها من المعانى التى يقصدونها وقد تقدم ذلك .

فصـــــل

قـــوله :

وأمـا في طرق الاثبـات ، فمعلوم أيضـا أن المثبت لا يكفى في إثبـاته مجرد نفي التشبيـه ، إذ لو كفى في إثبـاتـه مجرد نفي التشبيـه لجاز أن يوصف سبحانه من الأعضاء والأفعال بما لا يكاد يحصى مما هو ممتنع عليه مع نفى التشبيه . وان يوصف بالنقائص التي لا تجوز عليه مع نفى التشبيه ، كما لو وصفـه مفـتر عليه بالبكاء والحزن والجوع والعطش مع نفى التشبيه وكما لو قال المفترى : يأكل لا كأكل العباد ، ويشرب لا كشربهم ، ويبكى ويحزن لا كبكـائهم ولا حزنهم ، كما يقـال : يضحـك لا كضحكهم . ويفـرح لا كفـرحهم ، ويتكلم لا ككـلامهم . ولجـاز أن يقـال : له أعضـاء كثـيرة لا كأعضائهم كما قيل له وجه كوجوههم . ويدان لا كأيديهم حتى يذكر المعدة والأمعـاء والـذكر . وغير ذلك مما يتعالى الله عز وجل عنه . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . فانه يقال : لمن نفى ذلك مع إثبات الصفات الخبرية وغيرها من الصفات ، ما الفرق بين هذا وما أثبته إذا نفيت التشبيه وجعلت مجرد نفي التشبيه كافياً في الاثبات؟ فلابد من إثبات فرق في نفس الأمر .

ش يعنى ان الاعتـماد في إثبـات الصفات لله لا يكفى فيه مجرد نفي التشبيـه : فلا يقـال نصف الله بكـل وصف حتى ولو كان غير وارد ، مادمنا ننفي مشـابهتـه لخلقـه ، فهـذا الطـريق لا يكفي لما يترتب عليه من اللوازم البـاطلة : إذ لو كان الأمـر كذلـك لجاز أن يوصف الـرب بما يمتنع عليه من أوصـاف النقص كأن يقـال له بكـاء وحـزن وجوع وعطش وأكل وشرب لا يماثـل ما يختص بالمخلوقـين ، كما يوصف بالعلم والقـدرة والسمـع والبصـر والمحبـة والـرضـا والـوجـه واليـدين إلى غير ذلـك من الصفات الواردة في الكتاب والسنة ، أو لجاز أن يقال : له أعضاء كما أن للمخلوق أعضاء دون

أن يكون ما يختص بالله مماثلا لما يختص بالمخلوق الفقير المحدث. ولو كان الاعتماد فى الاثبات يكفى فيه النفي المجرد عن التشبيه، لقيل لمن ينفى أوصاف النقص عن الله ويثبت له أسماءه الحسنى وصفاته العليا دون تفريق بين بعضها والبعض الآخر: ما الفرق بين ما نفيت وبين ما أثبت، مادام أن العمدة في الاثبات هو مجرد نفي التشبيه دون اعتبار آخر؟ وحينئذ فلابد من فارق ثابت بين ما يجوز إثباته لله وما لا يجوز. وأنت خبير بأن الفارق هو ورود الوصف أو عدم وروده، وما يليق بالله وما لا يليق به كما سيأتى.

قـــــوله :

فإن قال: العمدة في الفرق هو السمع فما جاء به السمع أثبته دون ما لم يجيء به السمع. قيل له: أولا: السمع هو خبر الصادق. . عن ما هو الأمر عليه في نفسه. فما أخبر به الصادق فهو حق. من نفي أو إثبات. والخبر دليل على المخبر عنه. والدليل لا ينعكس. فلا يلزم من عدمه عدم المدلول عليه. فما لم يرد به السمع يجوز أن يكون ثابتا في نفس الأمر. وان لم يرد به السمع إذا لم يكن نفاه. ومعلوم ان السمع لم ينف هذه الأمور بأسمائها الخاصة. فلابد من ذكره ما ينفيها من السمع وإلا فلا يجوز حينئذ نفيها. كما لا يجوز إثباتها. وأيضاً فلابد فى نفس الأمر من فرق بين ما يثبت له وبين ما ينفى عنه. فإن الأمور المتماثلة في الجواز والوجوب والامتناع يمتنع اختصاص بعضها دون بعض في الجواز والوجوب والامتناع. فلابد من اختصاص المنفي عن المثبت بما يخصه بالنفي ولابد من اختصاص الثابت عن المنفي بما يخصه بالثبوت.

وقد يعبر عن ذلك بأن يقال: لابد من أمر يوجب نفي ما يجب نفيه عن الله كما أنه لابد من أمر يثبت له ما هو ثابت. وان كان السمع كافيا كان مخبرا عما هو الأمر عليه في نفسه. فما الفرق في نفس الأمر بين هذا وهذا. فيقال. . كل ما نافى صفات الكمال الثابتة لله فهو منزه عنه. فإن ثبوت أحد

الضـدين يستلزم نفي الآخـر فإذا علم أنـه موجـود واجب الوجود بنفسه . وانه قديم واجب القدم . علم امتناع العدم والحدوث عليه . وعلم انه غني عما سواه . فالمفتقـر إلى ما سواه في بعض ما يحتـاج إليـه لنفسـه ليس هو موجـودا بنفسـه . بل وجوده بنفسه وبذلك الآخر الذى أعطاه ما تحتاج إليه نفسـه . فلا يوجـد إلا به وهـو سبحـانه غني عن كل ما سواه . فكل ما نافى غناه فهو منزه عنه وهو سبحانه قدير فكل ما نافى قدرته وقوته فهو منزه عنه وهو سبحانه حي قيوم فكل ما نافى حياته وقيوميته فهو منزه عنه .

ش : يعنى أن المثبت للأسماء والصفات النافى لصفات النقص : قد يعـترض عليـه من يثبت لله أوصافا كالأكل والشرب والعطش والجوع وشبه ذلـك من أوصـاف لا تليق به ، إذا قال المثبت العمـدة فى هذا البـاب على السمع فما ورد فى السمع أثبتناه ، وما لم يرد به السمع لم يكف فى إثباته مجرد نفي التشبيـه . إذا قال هذا القـول قال له المعترض : السمع هو خبر الله أو خبر رسوله عن ما الأمر عليه فى الواقع ، فما ورد فى الكتاب أو السنة من نفي أو إثبـات فهـو حق يجب تصـديقـه دون أن ننفي ما لم ينف كما لم نثبت ما لم يثبت ؛ فإن الـدليـل دال على المخبر عنه ، وحال الدليل أنه لا ينعكس فلا يلزم من عدم الـدليـل عدم المدلول . فمثلا : ما لم يرد السمع بنفيه يجوز أن يكـون فى الـواقـع ثابتـاً لله مادام أن السمـع لم يرد بنفيـه : ومن المعلوم أن النصـوص لم تنف الأكـل والشـرب والبكـاء والحـزن ونحـو ذلـك بأسمائها الخاصة بها فلابد والحالة هذه من ورود نفي هذه الصفات بأسمائها وإلا فلا يجوز الحكم بنفيهـا كما قلتم لنـا بأنـه لا يجوز إثبـاتهـا لله : ويقـول المعترض بالاضافة إلى ما سبق لابد من أمر يميز لنا بين الأشياء التى يجوز إثباتها لله ومـا لا يجوز إثبـاتـه . ويميـز لنا بين الأشياء التى تنفى عن الله وبين الأشياء التى لا يصـح نفيهـا . فإن الثبـوت والنفى متـماثلان فيما يجب ويجوز ويمتنع فلابد من فارق يميز الاثبات عن النفي والنفي عن الاثبات وإلا فلا يجوز حينئذ أن ننفي شيئاً غير منفي فى النص كما لا يجوز أن نثبت شيئاً غير وارد

فيـه . وبعبـارة أصـرح قد يعـبر عما سبق بأن يقال : لابد من اعتبار يحتم ما يجب إثبـاتـه لله ويحتم ما يجب نفيـه عنه : وإن كان النص كافياً في ذلك كان خبره مطـابقـاً لما الأمـر عليـه في نفس الواقع ، وحينئذ فما الفرق بين نفي ما ينفى وإثبات ما يثبت؟ فكما تقولون يجب أن لا يثبت لله إلا ما ورد في النص فقولوا لا ينفى عن الله إلا ما جاء السمع بنفيه : هذا حاصل كلام المعترض فيقـال رداً عليهم ودحضـاً لبـاطلهم : كل ما نافى صفـات الكمال فهو منفي عن الله فإن إثبـات الشيء نفي لضـده ، كما أن نفي الشيء إثبات لضده . فمثـلا : هو سبحـانـه موصـوف بالـوجـود والأوليـة والغنى والحياة والقيومية والقدرة والقوة وإثبات هذه الأوصاف مستلزم لنفي أضدادها :

قـــــوله :

وبالجملة . فالسمع قد أثبت له من الأسماء الحسنى وصفات الكمال ما قد ورد. فكل ما ضاد ذلك فالسمع ينفيه . كما ينفي عنه المثل والكفء فإن إثبـات الشيء نفي لضـده . ولمـا يستلزم ضده والعقل يعرف نفي ذلك كما يعـرف إثبـات ضده فإثبـات أحـد الضـدين نفي للآخـر ولما يستلزمه ، فطرق العلم بنفي ما ينزه عنه الرب متسعة لا يحتاج فيها إلى الاقتصار على مجرد نفي التشبيـه والتجسيم . كما فعله أهـل القصـور والتقصـير الـذين تنـاقضـوا في ذلـك وفـرقوا بين المتماثلين ، حتى أن كل من أثبت شيئاً احتج عليـه من نفـاه بأنه يستلزم التشبه ، وكذلك احتج القرامطة على نفي جميع الأمـور ، حتى نفـوا النفي والاثبـات ، فقالوا الا يقال : لا موجود ولا ليس بمـوجـود ولا حي ، ولا ليس بحي ، لأن ذلـك تشبيـه بالموجود أو المعدوم ، فلزم نفي النقيضـين ، وهـو أظهر الأشياء امتناعا ، ثم إن هؤلاء يلزمهم من تشبيهـه بالمعـدومـات والممتنعات والجمادات أعظم مما فروا منه من التشبيه بالأحياء الكاملين ، فطرق تنزيهه وتقديسه عما هو منزه عنه متسعة لا تحتاج إلى هذا .

ش : بعد أن مثل المؤلف بصفة الوجود والأولية والغنى المطلق والقوة والقدرة والحياة والقيومية وأن إثبات هذه الأوصاف مستلزم لنفي أضدادها : اردف يقول : ومجمل القول أنه قد ورد في النصوص من أسماء الله الحسنى وأوصافه العليا ما هو ثابت معلوم ، وإثبات ذلك مستلزم لنفي ضده كالعلم مع الجهل والكلام مع الخرس والسمع مع الصمم وأشباه ذلك ونفي الشيء إثبات لضده كالظلم مع العدل ونفي المثيل والكفء والشريك إثبات للوحدانية والتفرد بالخلق والتدبير والكمال المطلق : فإثبات أحد الضدين نفي للآخر ولما يستلزمه ولقد أحسن القائل :

والضد يظهر حسنه الضد   وبضدها تتبين الأشياء

وسيأتي بعد هذا فى كلام الشيخ أمثلة توضح هذا المقام ، والعاقل بما وهبه الله من عقل سليم يدرك ذلك فهي قضية بدهية ضرورية ، وحينئذ فطرق تنزيه الله عما لا يليق به متعددة ليست منحصرة فيما يدعيه أهل الجهل والتفريط من أن نفي التشبيه يكفي فى إثبات ما لم يرد من الصفات ، أو أنه يعتمد عليه فى نفي ما ورد بحجة التنزيه كما هي طريقة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وأضرابهم . فقد أثبت البعض شيئاً ونفى شيئاً والبعض منهم نفى الجميع ، ولاشك أن هذه الطوائف قد تناقضت فى مقالاتها وفرقت بين الأمور المتماثلة فى الحكم . وأخذ بعضها يحتج على البعض الآخر بما يوافقه فيه . ثم إنهم لم يستفيدوا من دعوى التنزيه ونفي التشبيه إلا تنقص رب العالمين وتشبيهه بالناقصات ، فقد فروا من تشبيهه سبحانه بالأحياء الكاملين ، على زعمهم أن إثبات صفاته تشبيه ، فوقعوا في التشبيه بالجماد والمعدوم والممتنع : شأنهم في ذلك شأن القرامطة النافين الاثبات والنفي ، زعماً منهم أن الاثبات يلزم منه التشبيه بالموجودات والنفي يلزم منه التشبيه بالمعدومات ، فوقعوا فى تشبيهه بالممتنعات . وحينئذ فتنزيه الله عما لا يليق به لا يكون بوصفه بأوصاف النقص ، كما لا يكون بنفي أوصاف الكمال .

قـــــوله :

وقـد تقـدم أن نفي ما ينفي عنـه سبحـانـه ، نفي متضمن للنفي والاثبـات إذ مجرد النفي لا مدح فيـه ولا كمال ، فإن المعـدوم يوصف بالنفي والمعـدوم لا يشبـه المـوجـودات وليس هذا مدحـاً ، لأن مشابهة الناقص في صفـات النقص نقص مطلقـا كما أن مماثلة المخلوق في شيء من الصفـات تمثيل وتشبيه ينزه عنه الرب تبارك وتعالى والنقص ضد الكمال ، وذلك مثل انه قد علم انه حي والموت ضد ذلك ، فهو منزه عنه ، وكذلك النوم والسنة ضد كمال الحيـاة ، فإن النـوم أخو الموت ، وكذلك اللغوب نقص في القدرة والقـوة ، والأكـل والشـرب ونحـو ذلـك من الأمـور فيه افتقار إلى موجود غيره ، كما أن الاستعانة بالغير والاعتضاد به ونحو ذلك تتضمن الافتقار إليه والاحتيـاج إليـه ، وكـل من يحتـاج إلى من يحمله أو يعينـه على قيـام ذاتـه وأفعاله فهو مفتقر إليه ليس مستغنيا عنه بنفسه فكيف من يأكل ويشرب ، والآكل والشارب أجوف ، والمصمت الصمد أكمل من الآكل والشارب ، ولهذا كانت الملائكة صمدا لا تأكل ولا تشرب ، وقد تقدم أن كل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أولى به وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بتنزيهه عن ذلـك ، والسمـع قد نفى ذلـك في غير موضـع ، كقـولـه تعـالى ﴿الله الصمـد﴾ والصمـد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب وهذه السورة هى نسب الـرحمن ، أو هي الأصـل في هذا البـاب . وقـال في حق المسيـح وأمـه : ﴿مـا المسيـح ابن مريم إلا رسـول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقـة كانـا يأكـلان الطعام﴾ فجعل ذلك دليلا على نفي الألوهية ، فدل ذلـك على تنـزيهـه عن ذلـك بطـريق الأولى والأحرى . والكبد والطحال ونحـو ذلـك هي أعضـاء الأكـل والشـرب فالغنى المنزه عن ذلك منزه عن آلات ذلك بخلاف اليد فإنها للعمل والفعل وهو سبحانه موصوف بالعمل والفعل ، إذ ذاك من صفات الكمال ، فمن يقدر أن يفعل أكمل ممن لا يقدر على الفعـل وهـو سبحـانـه منـزه عن الصـاحبـة والـولد وعن آلات ذلك

وأسبابه. وكذلك البكاء والحزن هو مستلزم الضعف والعجز الذى ينزه عنه سبحانه. وبخلاف الفرح والغضب. فإنه من صفات الكمال. فكما يوصف بالقدرة دون العجز، وبالعلم دون الجهل، وبالحياة دون الموت وبالسمع دون الصمم، وبالبصر دون العمى، وبالكلام دون البكم، فكذلك يوصف بالفرح دون الحزن وبالضحك دون البكاء ونحو ذلك.

ش : يقول الشيخ قد تقدم يعني في القاعدة الأولى، أن جميع ما وصف الله به نفسه من النفي فهو متضمن لنفي أوصاف النقص وإثبات أوصاف الكمال. فنفي السنة والنوم واللغوب وكونه لا يؤ وده حفظ السموات والأرض ولا يعزب عنه شيء وكونه يرى ولا يحاط به رؤ ية، كل ذلك نفي متضمن لاثبات الكمال، ونفي ما يضاد هذه الحال، وهكذا القول فى سائر ما ورد: وحينئذ فالنفي المحض ليس بشيء: ولهذا يوصف به المعدوم والمعدوم لا يشبه الموجودات وليس ذلك مدحاً له لأن مشابهة الناقص نقص بكل حال كما أن المماثلة لشيء من الموجودات فيه مشابهة ومماثلة للغير: وذلك نقص كما أن عدم المماثلة كمال. ولذلك يوصف الرب بأوصاف الكمال دون أضدادها كما يتنزه ويتقدس عن الشبيه والمثال. ثم سرد المؤلف أمثلة لأوصاف الكمال المستلزمة لنفي أضدادها، ونفي أوصاف النقص المستلزمة لاثبات أضدادها فقال: وذلك أنه قد علم أنه حي والموت ضد ذلك فهو منزه عنه. إلى قوله: والأكل والشرب فيه افتقار إلى موجود غيره. يعني ففي إثبات هذه الصفات نفي لاضدادها ولما يستلزم أضدادها. وقوله: «والآكل والشارب أجوف والمصمت الصمد أكمل من الآكل والشارب» إلى قوله: «فجعل ذلك دليلا على نفي الألوهية فدل ذلك على تنزيهه عن ذلك بطريق الأولى والأحرى» معناه: إذا عرف أن من اعتضد بغيره واستعان به فى أن يحمله أويقضي حوائجه فهو مفتقر إلى ذلك الغير: فمن يأكل ويشرب مفتقر إلى الأكل والشرب لتقوم به ذاته ويقوى به. والمصمت أكمل من الأجوف لعدم افتقاره إلى

شيء تقـوم به ذاتـه ، ومن أجـل ذلك كانت الملائكة صمداً ، فهم من هذه الجهة أكمل من الانسان لحاجته إلى الأكل والشرب والله تبارك وتعالى قد وصف نفسه بأنه الصمد والصمد الذي لا جوف له . وقد علم أن لله المثل الأعلى فهـو أحق بالكـمال من سائـر خلقه كما أنه أولى بالتنزه عن النقائص والعيـوب وقـد وصف الله عبـده ورسوله عيسى وأمه مريم بأنهما كانا يأكلان الطعـام راداً بذلـك على من زعمهـما إلهَين فجعـل الأكل دليلا على عدم الألـوهيـة لما فيـه من الحـاجـة والافتقار فعلم بالضرورة انتفاء ذلك عن الله سبحـانـه من باب أولى . وقـولـه : والكبد والطحال ونحو ذلك هي أعضاء الأكـل والشـرب إلى قولـه : وبخـلاف الفـرح والغضب فانـه من صفات الكمال» يعني : كما أن الله سبحانه منزه عن الأكل والشرب لأن ذلك وصف نقص فهـو سبحـانـه منـزه عن لوازمـه كالكبـد والطحـال وكما أنه منزه عن الصاحبة والولد إذ هذه مستلزمة للحاجة والافتقار فهو منزه عن لوازم ذلك ، وكـما أنـه متصف بأوصـاف الكمال كاليد فهو متصف بلوازم ذلك كالعمل ، وقوله : «فكما يوصف بالقدرة دون العجز وبالعلم دون الجهل الخ» معناه : أن الله سبحـانـه يوصف بأوصـاف الكمال دون أضدادها مطلقا ، ومن جملة ذلـك وصفـه بالضحـك دون ضده وهـو البكـاء ، وبـالفرح دون ضده وهو الحـزن وبـالغنى المطلق دون الأكـل والشرب . وحينئذ فالذين يصفون الله بمثـل هذه الأوصـاف المنـافية للكمال ويكتفون فيها بنفي مشابهة الله لخلقه مخالفون للمعقول الصريح والمنقول الصحيح .

وقـولـه : «وهـذه السـورة ، هي نسب الـرحمن أوهي الأصل في هذا البـاب» يعني كما أخـرج الإمـام أحمـد وابن خزيمـة والبيهقي في «الأسـماء والصفات» عن أبى ابن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يامحمد أنسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد﴾ «ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث وأن الله لا يموت ولا يورث» ﴿ولم يكن له كفـواً أحـد﴾ «لم يكن له شبيـه ولا عدل وليس كمثله

شيء» وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضى الله عنها «أن النبي ﷺ بعث رجلا في سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟! فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال أخبروه أن الله تعالى يحبه».

قــــوله :

وأيضا فقد ثبت بالعقل ما أثبته السمع من أنه سبحانه لا كفء له ولا سمي له، وليس كمثله شيء، فلا يجوز أن تكون حقيقته كحقيقة شيء من المخلوقات ولا حقيقة شيء من صفاته كحقيقة شيء من صفات المخلوقات، فيعلم قطعاً انه ليس من جنس المخلوقات لا الملائكة ولا السموات، ولا الكواكب ولا الهواء، ولا الماء ولا الأرض ولا الأدميين ولا أبدانهم ولا أنفسهم ولا غير ذلك بل يعلم ان حقيقته عن مماثلة شيء من الموجودات أبعد من سائر الحقائق، وان مماثلته لشيء منها أبعد من مماثلة حقيقة شيء من المخلوقات لحقيقة مخلوق آخر. فإن الحقيقتين إذا تماثلتا جاز على كل واحدة ما يجوز على الأخرى ووجب لها ما يجب لها: فيلزم أن يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدث المخلوق من العدم والحاجة، وان يثبت لهذا ما يثبت لذلك من الوجوب والغنى فيكون الشيء الواحد واجب بنفسه غير واجب بنفسه موجوداً معدوما. وذلك جمع بين النقيضين. وهذا مما يعلم به بطلان قول المشبهة الذين يقولون بصر كبصري، أو يد كيدى ونحو ذلك، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وليس المقصود هنا استيفاء ما يثبت له ولا ما ينزه عنه واستيفاء طرق ذلك، لأن هذا مبسوط في غير هذا الموضع وإنما المقصود هنا التنبيه على جوامع ذلك وطرقه، وما سكت عنه السمع نفياً وإثباتا ولم يكن في العقل ما يثبته ولا ينفيه، سكتنا عنه فلا نثبته ولا ننفيه، فنثبت ما علمنا ثبوته. وننفي ما علمنا نفيه، ونسكت عما لا نعلم نفيه ولا إثباته والله أعلم.

ش : يعني أن العقل السليم يدرك أن الرب الخالق للكون بأسره لابد أن يكون متصفاً بالكمال، ومنزهاً عن النقص، كما أن السمع قد ورد بذلك فيعلم بالضرورة من العقل والسمع أن ذات الله سبحانه ليست كذوات المخلوقين ولا صفاته كصفاتهم فليس كشيء من الموجودات من سماء أو ملائكة أو أبدان آدميين أو أرواحهم أو غير ذلك، ويعلم علما يقينياً أن مباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة مخلوق لمخلوق، فإذا كان بعض الموجودات لا يماثل بعضاً فالمباينة التى بين الخالق والمخلوق أعظم من ذلك. فإذا انتفت المماثلة بين مخلوق ومخلوق فانتفاؤها بين الخالق والمخلوق بطريق الأولى، والحقيقتان إذا تماثلتا جاز على إحداهما ما يجوز على الأخرى ووجب لها ما وجب لها، فلو تماثل الخالق والمخلوق لجاز على الله ما يجوز على المخلوق من العدم والحدوث والافتقار، ووجب للمخلوق ما يجب للخالق من البقاء والقيومية والغنى المطلق ووجوب الوجود، وحينئذ فيكون كل منهما واجب الوجود ليس واجب الوجود غنى عما سواه غير غنى عما سواه باقياً ليس باقياً وهكذا. وحينئذ فيلزم الجمع بين النقيضين وذلك ممتنع؛ وبهذا يعلم أن قول المشبه: لله سمع وبصر ويد واستواء كسمعي وبصري ويدي واستوائي ونحو ذلك قول واضح الفساد، حيث يلزم منه أن يجوز على الخالق ما يجوز على المخلوق ويجب له ما يجب له، وليس القصد في هذه الرسالة المختصرة استيعاب طرق النفي والاثبات، فمحل بسط ذلك هو المطولات وإنما المقصود هنا لفت النظر إلى ضوابط وقواعد نافعة مع لفت النظر والتنبيه إلى طرق النفي والاثبات الواجبين لله، وإذا عرف هذا فما أثبته الشرع وجب إثباته وما نفاه وجب نفيه وما سكت عنه فلم يثبته ولم ينفه فإن كان فى العقل ما يثبته ككونه وصف كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه أثبتناه ضمن المثل الأعلى وإن كان فى العقل ما ينفيه ككونه وصف نقص نفيناه ضمن المثل الأعلى أيضا، وإن لم يكن في العقل ما يثبته ولا ينفيه سكتنا عنه فلم نثبته ولم ننفه والله جل وعلا متصف بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله وهو أعلم بما يستحقه مما علمنا وما لم نعلم من

أوصاف الكمال ونعوت الجلال.

إلى هنا تمت القواعد الست الموجودة فى النسخ المتداولة، وقد وجد البحاثة النجدي الشيخ عبد الرحمن بن قاسم نسخة لمتن التدمرية بمكتبة الألوسي بالعراق، ولما جمع فتاوى ابن تيمية ورتبها وطبع المجموع كان فيه متن التدمرية وكان ضمنه قاعدة سابعة اشتملت عليها الخاتمة الجامعة، وقد رقم الشيخ ابن قاسم لهذه القاعدة بالحروف الأبجدية اشارة إلى أنها ليست من صلب التدمرية فى النسخ المعتمدة.

وكنت قد عزمت على شرحها وضمها إلى القواعد الست وبعد النظر والتأمل فيها وجدتها غير خالية من سقط في الكلمات وارتباك فى التعبير فى بعض المواضع. وظهر لي أنها ربما كانت موجودة فى نسخة مسودة. ثم بيضت الرسالة بدونها ولهذا نجدها لم ترد فى النسخ المشهورة والمتداولة بين الناس بل أهملت ولم تذكر، ومن أجل ذلك عدلت إلى أغفالها وعدم ضمها إلى أخواتها فى هذا الشرح. على أن جل ما فيها قد وردت زبدته فى كلام الشيخ فى موضعين، أحدهما عند قوله فى الأصل الأول: «فإن قال أنا أنفي النفي والاثبات قيل له فيلزمك التشبيه بما اجتمع فيه النقيضان من الممتنعات. إلى قوله: فجعلت الوجود الواجب الذي لا يقبل العدم، هو أعظم الممتنعات وهذا غاية التناقض والفساد.

والثاني عند قوله: في القاعدة الأولى:

ومن قال انه ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم لزمه أن يكون ميتا أصم أعمى أبكم. إلى قوله:

واعلم أن الجهمية المحضة كالقرامطة ومن ضاهاهم ينفون عنه تعالى اتصافه بالنقيضين حتى يقولون ليس بموجود ولا ليس بموجود ولا حي ولا ليس بحي، ومعلوم أن الخلو من النقيضين ممتنع فى بدائه العقول. كالجمع بين النقيضين، والله الموفق للصواب.

فصـــــــل

قـــــوله :

وأمـا الأصـل الثـاني وهـو التـوحيـد في العبـادات المتضمن للايمان بالشـرع والقـدر جميعـا فنقـول لابـد من الايـمان بخلق الله وأمره ، فيجب الايـمان بأن الله خالق كل شيء وربـه ومليكـه ، وانه على كل شيء قدير ، وانه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن : ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد علم ما يكون قبل أن يكون ، وقدر المقادير وكتبها حيث شاء ، كما قال تعالى : ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسـير﴾ وفي الصحيـح عن النبي ﷺ انـه قال : «ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» ويجب الايمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والانس لعبادته ، وبذلك ارسل رسله وأنزل كتبه .

ش : هذا شروع فى بيـان الأصـل الثـانى من نوعي التـوحيـد وهـو توحيـد الشـرع والقـدر : وقـد سبق الكـلام فى أنهما متلازمان وانه لابد من الايمان بالشرع والقدر إيمانا خالياً من الزلل ، وكما انه لابد في الأصل الأول من أمرين وهما إثبات ما أثبته الله ورسوله من أوصاف الكمال ونفي ما يجب نفيه مما يضاد هذه الحال ، فلابد أيضا فى باب شرع الله وتقديره من أمرين : أحـدهما : الايـمان بربوبية الله الشاملة وانه خالق كل شيء ومليكه . وان ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه لا تحول للخلق من حال إلى حال ولا قوة لهم إلا به وانـه العليم بكـل شيء فلا تخفى عليـه خافيـة يعلم ما كان قبل كونـه ومـا لم يكن لوكان كيف يكـون : علم ما العباد فاعلون وكتب مقادير كل شيء قبـل أن يخلق السمـوات والأرض . فانـه لا يكـون إلهـا مستحقـاً للعبادة إلا من كان خالقاً رازقا مالكا متصرفا مدبراً لجميع الأمور حيا قيوما

سميعا بصيرا عليماً حكيماً موصوفا بكل كمال منزها عن كل نقص غنيا عما سواه، مفتقراً إليه كل ما عداه، فاعلا مختارا لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ولا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض، ولا تخفى عليه خافية، والثاني انه لابد من الايمان بانه سبحانه شرع الشرائع وأمر العباد ونهاهم، ليطيعوا أمره ويجتنبوا نهيه فقد خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ فحيث كان متفرداً بالخلق والبدء والاعادة ولا يشركه فى ذلك أحد، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة دون سواه كما قال تعالى: ﴿ياأيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ وهذه هي الحكمة من خلق الجن والانس كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ وبذلك أنزل كتبه المقدسة وأرسل رسله عليهم الصلاة والسلام كما قال جل وعلا:

﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾

والشاهد من آية الحج كونه سبحانه يعلم كل شيء فى السماء والأرض وأن ذلك مكتوب عنده فى كتاب. والشاهد من الحديث كونه تعالى قدر مقادير الخلق قبل خلقه لسمواته وأرضه، بهذه المدة المذكورة؛ وهذا الحديث رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ «أنه قال: قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» ومثله رواه البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه «أن النبي ﷺ قال يابنى تميم اقبلوا البشرى قالوا قد بشرتنا فأعطنا، فأقبل على أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم فقالوا قد قبلنا يارسول الله، قالوا جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال كان الله ولم يكن شيء قبله وفى لفظ معه وفي لفظ غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض» قال ثم جاءني رجل فقال أدرك ناقتك فذهبت فإذا السراب ينقطع دونها فو الله لوددت أني تركتها ولم أقم، وقوله ﷺ كتب فى الذكر يعني اللوح

المحفوظ؛ كما قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ أي من بعد اللوح المحفوظ، ومعنى الحديث اخباره ﷺ عن خلق هذا العالم المشهود، الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن العظيم بذلك في غير موضع ومثله أيضاً الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وغيرهما من عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال أول ما خلق الله القلم فقال اكتب قال وما أكتب قال ما هو كائن إلى يوم القيامة. فهذا القلم خلقه الله لما أمره بالتقدير المكتوب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان مخلوقا قبل السموات والأرض وهو أول ما خلق من هذا العالم، وخلقه بعد العرش كما دلت عليه النصوص وهو قول جمهور السلف. والأمر يراد به المصدر ويراد به المفعول به وهو المأمور الذي كونه الله بأمره، والشرع هو ما سن الله من الدين وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر (والقدر) مصدر قدر يقدر وقد تسكن داله، وهو ما قضاه الله تعالى وحكم به من الأمور، كما سيأتي.

قـــــوله:

وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له. وذلك يتضمن كمال طاعته ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقد قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ وقال تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا. أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى. أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ وقال تعالى: ﴿ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم، وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ فأمر الرسل باقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، والأنبياء

إخوة لعلات وان أولى الناس بابن مريم، لانا، إنه ليس بيني وبينه نبي».

ش : جماع العبادة هو كمال الحب مع كمال الذل. وهي كما قال الشيخ اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة. كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين والاحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر وأمثال ذلك. والباطنة كالصبر والرضاء بقضاء الله والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك. وذلك كله يتضمن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وقد جعل الله عز وجل طاعة رسوله طاعة له وعلق محبته سبحانه باتباع رسوله ﷺ كما في آيتي النساء وآل عمران، والشاهد من آية اللنساء والزخرف وآية الأنبياء والمؤمنون والشورى هو أن الغاية من إنزال الكتب السماوية جميعها وإرسال الرسل كلهم هي عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وهذا الحديث متفق عليه، وهو مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: والشاهد منه أن القدر المشترك بين الأنبياء هو عبادة الله وحده لا شريك له وان اختلفت شرعتهم ومناهجهم كما فى قوله جل جلاله ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ وقوله سبحانه ﴿شرع لكم من الدين﴾ الآية. معناه كما قال أهل التفسير: شرع لكم ولمن قبلكم من الأنبياء ديناً واحداً. يعنى التوحيد، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وصاه باقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاقرار لله بالطاعة فذلك دينه الذي شرع لهم، وخص نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى. بالذكر مع نبينا ﷺ لأنهم أرباب الشرائع. ثم أمرهم سبحانه باقامة الدين ونهاهم عن الاختلاف فيه. أي لا يختلفوا فى التوحيد والايمان بالله وطاعة رسله وقبول شرائعه فإن هذه قد تطابقت عليها الشرائع وتوافقت فيها الأديان فلا ينبغي الخلاف فى مثلها.

وليس من هذا فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة وتتعارض فيها الامارات وتتباين فيها الأفهام فانها من مطارح الاجتهاد ومواطن الخلاف. والعلات جمع بمعنى الضرات) واحده علة. سميت بذلك لأن الذى تزوج أخرى على أولى قد كانت قبلها «نهل» ثم «عل» من هذه. ومعنى أولاد علات أي بني أمهات شتى من رجل واحد، والمعنى فى الحديث أن الأنبياء بعثوا متفقين فى أصول التوحيد متباينين في فروع الشرع، وقيل: أراد أن الأنبياء يختلفون فى أزمانهم وإن شملتهم النبوة. فكأنهم أولاد علات لم يجمعهم زمن واحد. كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد.

قوله :

وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين، فان جميع الأنبياء على دين الإسلام، قال الله تعالى: عن نوح ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه، ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾، إلى قوله ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾، وقال عن إبراهيم: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ إلى قوله ﴿إذ قال له ربه أسلم، قال اسلمت لرب العالمين﴾ إلى قوله ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وقال عن موسى: ﴿ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ وقال في حواري المسيح: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنو بي وبرسولي قالوا آمنا، واشهد باننا مسلمون﴾ وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا﴾ وقال عن بلقيس أنها قالت: ﴿رب انى ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ فالاسلام يتضمن الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده، وطاعته وحده فهذا دين الاسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون

بأن يطاع في كل وقت، بفعل ما أمر به في ذلك الوقت فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمرنا ثانيا باستقبال الكعبة، كان كل من الفعلين حين الأمر به داخلا في الاسلام، فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما تنوع بعض صور الفعل وهو وجهة المصلي، فكذلك الرسل، وان تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك. فان ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد.

ش : يقول الشيخ ان دين الأنبياء والمرسلين دين واحد وان كان لكل منهم شرعة ومنهاج. فدين المرسلين يخالف دين المشركين. المبتدعين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ وهذا التوحيد هو أصل الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره. وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وأمثال ذلك من الآيات. وقد ذكر الله عز وجل أن كل واحد من الرسل افتتح دعوته بأن قال لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ «أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم» واعلم أن الله قد خص نبينا محمداً ﷺ بخصائص ميزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين وجعل له شرعة ومنهاجا هي أفضل شرعة وأكمل منهاجاً كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس. فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس. هداهم الله بكتابه وإرسال رسوله لما اختلف فيه من الحق قبلهم وجعلهم وسطاً عدلا خياراً. فهم وسط فى توحيد الله وأسمائه وصفاته وفى الايمان

برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأحل للهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث. لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود. ولم يحل لهم شيئاً من الخبائث كما استحلتها النصارى. ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة. بينما كانت اليهود لا يرون إزالة النجاسة بالماء بل إذا أصابت ثوب أحدهم قرضه بالمقراض. والنصارى ليس عندهم شيء نجس. وكذلك المسلمون وسط فى الشريعة فلم يجحدوا شرعة الناسخ لا جل شرعة المنسوخ كما فعلت اليهود. ولا غيروا شيئاً من شرعه المحكم. ولا ابتدعوا شرعا لم يأذن به الله كما فعلت النصارى ولا غلوا فى الأنبياء والصالحين كغلو النصارى ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود ولا جعلوا الخالق سبحانه وتعالى متصفا بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه من الفقر والبخل والعجز كفعل اليهود ولا المخلوق متصفا بخصائص الخالق سبحانه التى ليس كمثله فيها شيء كفعل النصارى. ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ولا أشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى. وأهل السنة والجماعة فى الاسلام كأهل الاسلام فى أهل الملل. فهم وسط فى باب صفات الله عز وجل بين أهل الجحد والتعطيل وبين أهل التشبيه والتمثيل.

يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل، إثباتا لصفات الكمال وتنزيهاً له عن أن يكون له فيها أنداد وأمثال:

فالاسلام بهذا المفهوم العام متضمن للانقياد التام والطاعة الكاملة لله وحده دون من سواه.

وحينئذ فمن انقاد لغيره وعبده فهوغير مسلم له. بل هومستكبر عن الاستسلام له وجاحد لألوهيته، كما أن من عبده وعبد غيره مشرك به سواه وغير مستسلم له. وكل من المتكبر عن عبادته والمشرك به غير مسلم. فان الاستسلام له سبحانه يستلزم عبادته وطاعته وحده لا شريك له،

فالـدين الـذي لا يقبـل الله من جميـع الأمم سواه هو الاسلام بهذا المعنى . وحقيقـة الأمـر أن طاعتـه فى كل حين هي الاسـلام : فمثـلاً ما شرعـه الله لموسى وعيسى من العبـادة وإن اختلف عما شرعـه الله لنبينـا محمـد عليهم الصـلاة والسـلام بأن اختلفت فى كيفيـة عبـادة أو تحليل شيء كان محرما أو تحريم شيء كان حلالا . فتختلف في شريعـة رسـول عنها فى شريعة رسول آخـر، إلا أن الأصـل واحـد وهـو: الاستسـلام لله بالتـوحيـد والانقياد له بالطـاعـة . قال تعـالى ﴿ومـا أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فهذا الاختـلاف في المنهـج مع الاتفـاق فى الأصل حاصل ما بين شريعة وشريعة كما يحصل فى شريعة الرسول الواحد . فأمر الرسول ﷺ باستقبال الصخرة في بيت المقدس ، وامتثاله لذلك طاعة واسلام قبل النسخ ثم أمره بالتحول إلى استقبال الكعبة بالبيت الحرام وامتثاله لذلك طاعة وإسلام . والشاهد من آيـة يونس وآيـات البقـرة وأيضـاً آيـة يونس وآيتى المـائـدة الشـاهد من الجميـع : أن جميـع الـرسل جاؤ وا بدين الاسلام الذي هو التوحيد . وسفه نفسه : جهلها . والحواريون هم أصفياء عيسى . وأنصار دينه وأول من آمن به . والمسيـح هو عيسى بن مريم عليـه السـلام وسمي بذلـك لأنـه مسـح الأرض أي ذهب فيها فلم يستكن بكن . أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء فسمي مسيحـاً . فهـو على هذين فعيـل بمعنى فاعـل أو لأنـه كان ممسوح الاخمصين أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب وهو على هذين القولين فعيـل بمعنى مفعـول . وأمـا الـدجـال فسمي مسيحـاً لأنه ممسوح إحدى العينين ، وقيل لأنه يمسح الأرض أي يطوف ببلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس . وبلقيس هي بنت شرحبيل ملكة سبأ بمدائن اليمن .

والمنسك هو العبادة عموما فيشمل الحج وغيره .

قـــــوله :

والله تعالى جعل من دين الرسل، أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به وآخـرهم يصـدق بأولهم ويـؤمن به، قال الله تعـالى ﴿وإذ أخـذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتـؤمنن به ولتنصـرنـه قال أأقـررتم وأخـذتم على ذلكم اصـري قالـوا: أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ قال ابن عباس لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمـره أن يأخـذ الميثـاق على أمتـه لئن بعث محمـد وهم أحيـاء ليـؤمنن به ولينصـرنـه، وقـال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم عما جاءك من الحق، لكـل جعلنـا منكم شرعـة ومنهـاجاً﴾ وجعل الايمان بهم متلازماً وكفر من قال: انه آمن ببعض. وكفر ببعض. قال الله تعالى ﴿ان الذين يكفرون بالله ورسله. ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكـافـرون حقاً﴾ وقال تعالى: ﴿افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون﴾.

وقـد قال لنـا ﴿قـولـوا آمنـا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسـماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيـون من ربهم لا نفـرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمـون، فإن آمنـوا بمثـل ما آمنتم به فقـد اهتدوا، وان تولوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهـو السميـع العليم﴾ فأمـرنـا ان نقـول: آمنـا بهذا كله، ونحن له مسلمون، فمن بلغته رسالة محمد ﷺ فلم يقر بما جاء به لم يكن مسلما ولا مؤمنا، بل يكون كافراً وان زعم انه مسلم أو مؤمن، كما ذكروا انه لما أنزل الله تعـالى ﴿ومن يبتـغ غير الإسـلام دينـا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من

الخاسرين﴾ قالت اليهود والنصارى فنحن مسلمون، فأنزل الله ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ فقالوا لا نحج فقال تعالى ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ فإن الاستسلام لله لا يتم إلا بالاقرار بما له على عباده من حج البيت، كما قال ﷺ «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، ولهذا لما وقف النبي ﷺ بعرفة أنزل الله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.

ش: يعنى ان الله سبحانه قد جعل من ضمن ما شرعه لعباده أن السابق من الأنبياء يبشر باللاحق وأن المتأخر يؤمن بالمتقدم. كما في قوله ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل﴾ الآية. وكما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده. عن أبى أمامة قال قلت يارسول الله ما كان بدء أمرك؟ قال دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام» وكما في الأثر الذي رواه الإمام أحمد أيضاً بسنده إلى عبد الله بن مسعود في قصة وفد قريش إلى النجاشي فى طلب المهاجرين إلى الحبشة وفيه «قال جعفر بن أبي طالب: «أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه فسلم ولم يسجد فقالوا له ما لك لا تسجد للملك؟ قال إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال وما ذاك. قال إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل وأمرنا بالصلاة والزكاة قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك فى عيسى بن مريم قال ما تقولون فى عيسى بن مريم وأمه؟ قال نقول كما قال عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التى لم يمسها بشر. قال فرفع عوداً من الأرض ثم قال يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الانجيل وأنه الذي يبشر به عيسى بن مريم انزلوا حيث شئتم» وكما أن

السابق يبشر باللاحق ويؤمن به فاللاحق يصدق السابق ويؤيده. كما فى آية المائدة التى استشهد بها المؤلف وأمثالها من الآيات. وقد جعل الله الايمان بالرسل مرتبطا بعضه ببعض. فمن فرق بينهم فى الايمان فليس بمؤمن بأحد منهم كما دل على ذلك آية النساء وآيتا البقرة ومثلهما آية آل عمران ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا﴾ الآية. وحينئذ فمن جملة الرسل نبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام وقد أخذ الله على جميع من سبقه من الأنبياء أن يؤمنوا به وأن يأخذوا العهد على أممهم: بالايمان به. كما في آية آل عمران. وقد ذكر المؤلف أثر ابن عباس كشاهد على معنى الآية الكريمة وقد روى هذا الأثرابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومثله ما رواه بن جرير أيضاً عن علي رضي الله عنه «قال لم يبعث الله نبيا. آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد لئن بعث وهوحي ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾» الآية.

وإذاً فعلى جميع من بلغته رسالة خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام أن يؤمن بمقتضاها وأن لا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. وقد حكم الله على اليهود والنصارى حين زعموا الاسلام وأمروا بالحج فامتنعوا بقوله: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وهذا الأثر رواه بن جرير والبيهقي في سننه عن عكرمة ولفظه: قال لما نزلت ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا﴾ قالت اليهود والنصارى فنحن مسلمون فقال لهم النبي ﷺ إن الله فرض على المسلمين حج البيت. فقالوا أيكتب علينا. وأبوا أن يحجوا. قال الله ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وذلك أن حج بيت الله الحرام أحد أركان الإسلام الخمسة كما في حديث ابن عمر الذي رواه البخاري ومسلم، فقد ختم الله الأنبياء بمحمد ﷺ وأكمل له ولأمته الدين كما فى آية المائدة. وقوله: «ولهذا لما وقف النبي بعرفة». يشير إلى ما رواه البخاري ومسلم عن طارق بن شهاب قال قالت اليهود لعمر إنكم

تقرؤ ون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال وأية آية؟ قالوا: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ قال عمر والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التى نزلت فيها: نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة فى يوم جمعة. وأقررتم هو من الاقرار بمعنى الاعتراف. والاصر فى اللغة: الثقل سمى العهد إصراً لما فيه من التشديد، والمعنى وأخذتم على ذلك عهدي. والأسباط: هم أولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولداً وكل واحد منهم له من الأولاد جماعة. والسبط فى بني إسرائيل بمنزلة القبيلة فى العرب، وسمو الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة متتابعون. وقوله: لم يكن مسلما ولا مؤمنا. يشير إلى أن من لم يؤمن بجميع ما بعث به محمد ﷺ فليس بمسلم وبطريق الأولى نفي الايمان عنه، لأن الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة والايمان يفسر بالأعمال الباطنة كما فرق النبي ﷺ فى حديث جبريل عليه السلام بين مسمى الإسلام ومسمى الإيمان. وهذا إنما هو إذا ذكرا جميعاً. وأما إذا ذكر أحدهما فقط فإن الآخر يدخل فيه. كما فى قوله تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ الآية. وكما في قوله ﷺ فى الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبى موسى عن النبي ﷺ. قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب. الحديث» فالإسلام داخل فى مسمى الإيمان. ومثال دخول الإيمان فى مسمى الإسلام قوله تعالى: ﴿وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾.

فالحاصل أن دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له. وعبادته تعالى فى كل زمان ومكان تكون بطاعة رسله عليهم السلام فلا يكون عابداً له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله، ولا يكون مؤمنا به ولا عابداً له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي

بعده فتكون الطاعة للرسول الثاني طاعة للأول . ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ .

قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافراً .

قـــــوله :

وقــد تنــازع النــاس فيمن تقـدم من أمـة موسى وعيسى : هل هم مسلمــون أم لا ؟ وهـو نزاع لفظي ، فالإسـلام الخـاص الـذي بعث الله به محمداً ﷺ المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ . والإسلام اليوم عند الاطلاق يتناول هذا ، وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة ، بعث الله بها نبياً فانه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء ، ورأس الإسـلام مطلقـا ، شهـادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ، أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وقال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وقال عن الخليل : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ، إنني براء مما تعبـدون ، إلا الـذي فطـرني فانه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعـون﴾ وقـال تعـالى عنـه : ﴿أفـرأيتم ما كنتم تعبـدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ وقال تعالى : ﴿قد كانت لكم أسـوة حسنـة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابـداً حتى تؤمنـوا بالله وحده﴾ وقال تعالى : ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنـا أجعلنـا من دون الـرحمن آلهة يعبدون﴾ وذكر عن رسله . كنوح وهـود وصـالـح وغـيرهم . انهم قالـوا لقومهم ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقـال عن أهـل الكهـف : ﴿انهم فتيـة آمنـوا بربهم وزدنـاهم هدى وربطنـا على قلوبهم إذ قامـوا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها . لقد قلنا إذا شططا﴾ إلى قوله : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ .

ش : يقول الشيخ اختلف العلماء فى جواز إطلاق اسم الإسلام على من سبق الأمة المحمدية من الأمم . والخلاف فى الحقيقة ما هو إلا لفظي . فان الجميع متفقون على أن كل أمة أطاعت رسولها الذي جاءها بشرع الله فهي مسلمة منقادة لأمر الله خاضعة لشرعه الذي شرعه على لسان ذلك الرسول المرسل . فان الإسلام دين والدين مصدروان يدين دينا إذا خضع وذل : ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله فى القلب الخضوع لله بعبادته وحده دون ما سواه ، فمن عبده وعبد معه إلها آخر لم يكن مسلماً ؛ ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما .

وأما الإسلام الخاص فهو كما فسره رسول الله ﷺ فى حديث جبريل الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله الخ . رواه مسلم ، وروى الإمام أحمد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال والله يارسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه أن لا آتيك فبالذي بعثك بالحق ما بعثت به ، قال الإسلام . قال وما الإسلام؟ قال أن تسلم قلبك لله وأن توجه وجهك إلى الله وأن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد أشرك بعد إسلامه الحديث ، وذكر الله تعالى عن موسى أنه قال : ﴿ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون : ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ وقال تعالى عن المسيح : ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ وقال تعالى : ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ وكما قال عن نوح أنه قال لقومه : ﴿فإن توليتم فما

سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وقال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾. وقال عن بلقيس: ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾، فالإسلام عند الجميع هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له، كما يقول أهل اللغة أسلم الرجل إذا استسلم، وحينئذ فرأس جميع الأديان هو الشهادة بوحدانية الله دون من سواه كما في آية النحل والأنبياء والشعراء والممتحنة، وآيتي الزخرف، ولقد أخبر الله تعالى عن كل رسول بأنه أمر قومه بعبادة الله وحده كما حكى ذلك عن نوح وهود وصالح، وإخوانهم من الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال سبحانه: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال عن شعيب: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وأخبر سبحانه عن أهل الكهف أنهم قالوا: ﴿لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططاً﴾ والخلة أعلى مراتب المحبة، ﴿وجعلها كلمة باقيه في عقبه﴾: أي جعل إبراهيم كلمة التوحيد باقية في ذريته بأن وصاهم بها كما في قوله سبحانه: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ والكهف جمعه كهوف وهو الغار المتسع في الجبل ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قويناها على قول الحق، ﴿لقد قلنا إذا شططا﴾: أي قولا ذا شطط أي إفراطا في الكفر إن دعونا إلها غير الله.

قـــوله :

وقد قال سبحانه : ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـاء﴾ ذكـر ذلـك في موضعـين من كتـابـه ، وقـد بين في كتابه الشرك بالملائكة والشرك بالأنبياء ، والشرك بالكواكب والشرك بالأصنام فقال عن النصـارى : ﴿اتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، ومـا أمـروا إلا ليعبـدوا إلهـا واحـدا لا إلـه إلا هو سبحـانـه عما يشـركـون﴾ وقـال تعـالى : ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس ، اتخذوني وأمي إلاهين من دون الله قال سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما في نفسـك . إنـك أنت علام الغيـوب : ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ وقال تعالى : ﴿وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ إلى قوله ﴿ولا يأمـركم أن تتخـذوا المـلائكـة والنبيـين أربـابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ فبين أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ومعلوم أن واحدا من الخلق لم يزعم أن الأنبيـاء والأحبـار والـرهبـان ومـريم شاركوا الله في خلق السمـوات والأرض، بل ولا زعم أحـد من النـاس أن العـالم له صانعـان متكافئان في الصفات والأفعال . بل ولا أثبت أحد من بني آدم إلها مساويا لله في جميع صفاته وعامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله . بل عامتهم يقـرون أن الشـريـك مملوك له ، سواء كان ملكا أو نبياً أوكوكباً أو صنماً ، كما كان مشركوا العرب يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك ، إلا شريكـا هو لك ، تملكـه ومـا ملك ، فأهـل رسول الله ﷺ بالتوحيد وقال : لبيـك اللهم لبيـك لبيـك لا شريـك لك لبيـك ، ان الحمـد والنعمـة لك والملك ، لا شريـك لك . وقـد ذكـر أربـاب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات ، فلم ينقلوا عن أحد إثبـات شريـك مشـارك له في خلق جميـع المخلوقات ، ولا مماثل له في جميع

الصفـــات، بل من أعظم ما نقلوا في ذلـك عن الثنـويـة الـذين يقـولـون بالأصلين النور والظلمة وان النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، ثم ذكـــروا لهم في الظلمـــة قولـــين: أحـدهما أنهـا محدثـة، فتكـون من جملة المخلوقات له، والثاني أنها قديمة، لكنها لم تفعل إلا الشر، فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور، وقد أخبر الله سبحانه عن المشركين من إقـرارهم بأن الله خالق المخلوقـات ما بينـه في كتـابـه، فقـال: ﴿ولئن سألتهم من خلق السمـوات والأرض، ليقـولن الله، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله، ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو ارادني برحمة هل هن ممسكـات رحمتـه قل حسبي الله عليـه يتـوكل المتوكلون﴾ وقال تعالى: ﴿قـل لمن الأرض ومن فيهـا ان كنتم تعلمـون، سيقـولـون: لله، قل أفلا تذكـــرون، قل من رب الـسمـــوات الـسبـــع ورب العـــرش العظيم، سيقولون: لله، قل أفلا تتقون﴾ إلى قوله ﴿فأنى تسحرون﴾ إلى قوله ﴿ما اتخـذ الله من ولـد ومـا كان معـه من إلـه اذا لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض سبحـان الله عما يصفـون﴾ وقال: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

ش: بعـد أن بين الشيـخ أن الإسـلام بمعنـاه العـام هو دين جميع الرسل وأن من أطاع رسوله من الأمم السابقة، يقال له مسلم كما يقال ذلك لأمة محمد ﷺ. بين بعد ذلك أن من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله بأن تقـــرب إلى ملك أونبي أوولي أوكوكب، أوشجـــرة، أوحجـــر، فهـو مشرك وقد قال الله جل وعلا فى حق المشركين ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ وقال فى الموضع الآخر من سورة النساء أيضاً: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً﴾ ثم استشهد المؤلف بآية براءة وآية المائدة. وآية آل عمران. على ذم عابد العلماء والعباد والملائكـة والأنبياء وبيان شركهم وكفرهم، وحكم الله عليهم بالكفر. إنما

هو بسبب شركهم مع الله في عبادته ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فكان المشركون من النصارى والعرب وغيرهم من أصناف الأمم الضالة، يعتقدون في الملائكة أو الأنبياء أو الشيوخ أنهم شفعاء لهم عند الله كما يشفع الشفعاء إلى ملوك الدنيا ويضربون لله مثلا فيقولون: من أراد أن يتقرب إلى ملك عظيم فلا ينبغي له أن يأتي إليه أولا؛ بل يتقرب إلى خاصته وهم يرفعون حوائجه ويقربونه إليه قال تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ذكر سبحانه هذا بعد قوله: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق، فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾ ثم قال سبحانه: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾ وقد نفى هذه الشفاعة التى يزعمونها كما قال تعالى: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ وقال: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. سبحانه بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾، وقال سبحانه: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ وقال تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾.

قال الشيخ: فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأما شفاعته ﷺ فى الآخرة فقد أخبر «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولا، فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه، قيل له أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فيقول أي رب؟ أمتي فيحد له حداً فيدخلهم الجنة وكذلك في الثانية وكذلك في الثالثة، قال أبو هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة، قال من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، فتلك الشفاعة لأهل الاخلاص بإذن الله ليست لمن أشرك بالله ولا تكون إلا بإذن الله» وحقيقة الأمر أن الله هو الذي يتفضل على أهل الاخلاص والتوحيد فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك. وينال المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون. كما كان ﷺ في الدنيا يستسقى لهم ويدعو لهم. فمقصود القرآن بنفي الشفاعة. نفي الشرك. وهو أن لا يعبد إلا الله ولا يدعى سواه ولا يسئل غيره ولا يتوكل على غيره لا في شفاعة ولا غيرها. فليس له أن يتوكل على أحد فى أن يرزقه. وإن كان الله يأتيه بأسباب. وحينئذ فالمشركون جميعاً لم يكونوا جاحدين لرب العالمين، ولا قال أحد قط من الآدميين أن الشمس أو القمر أو شيئاً من الكواكب أبدع السموات أو غيرها بل عباد الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب يعبدونها كما يعبد عباد الأصنام الأصنام بل قد يجعلونها شفعاء ووسائط بينهم وبين رب العالمين كما قال تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض﴾ حتى الثنوية من المجوس يقولون إن العالم صادر عن أصلين، النور والظلمة، والنور عندهم هو إله الخير المحمود. والظلمة هي الإله الشرير المذموم، وبعضهم يقول ان الظلمة هي الشيطان. ومنهم من قال ان الظلمة قديمة أزلية مع انها مذمومة ليست مماثلة للنور ومنهم من قال بل هي حادثة. وأن النور فكر فكرة رديئة فحدثت الظلمة عن تلك

الفكرة الرديئة، وهؤلاء مع إثباتهم اثنين وتسمية الناس لهم بالثنوية فهم لا يقولون ان الشر مماثل للخير، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين أو أن الخليل عليه السلام لما قال هذا ربي أراد به رب العالمين فقد غلط غلطا بينا، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين. قال الله تعالى عن الخليل: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ـ إلى قوله ـ فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم﴾ فأخبر الله تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدون إلا رب العالمين؛ وأخبر عنهم أنهم يقولون يوم القيامة ﴿تالله ان كنا لفي ضلال مبين. إذ نسويكم برب العالمين﴾ يعني آلهتكم، فلم يكونوا جاحدين للصانع بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً فى العبادة والمحبة والدعاء. وكذلك مشركو العرب وأمثالهم كانوا مقرين بالصانع وأنه خلق السموات والأرض، إذ كانوا مقرين بأن هذه السموات والأرض مخلوقة لله حادثة بعد أن لم تكن وقد استشهد المؤلف على ذلك بآية العنكبوت وآية الزمر وآيات المؤمنون، ثم استشهد بما كان العرب يقولونه في تلبيتهم من الاقرار بربوبية الله الشاملة، كما ذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك. حتى كان عمرو بن لحي الخزاعي فبينما هو يلبى تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبى معه فقال لبيك لا شريك لك فقال الشيخ الا شريكا هو لك فأنكر ذلك عمرو وقال ما هذا فقال الشيخ تملكه وما ملك فانه لا بأس بهذا فقالها ودانت بها العرب، وقد روى مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بنى كعب وهو يجر قصبه فى النار». ومن العلم المشهور أن عمرو ابن لحي هو أول من نصب الأنصاب حول البيت، ويقال انه جلبها من

البلقـاء. من أرض الشـام متشبهـاً بأهل البلقاء وهو أول من سيب السائبة ووصـل الـوصيلة وحمى الحـام، قال الشيـخ: ومعلوم أن العـرب قبله كانوا على ملة أبيهم إبراهيم، على شريعة التوحيد والحنيفية السمحة دين أبيهم إبـراهيم، فتشبهـوا بعمـرو بن لحي وكان عظيم أهل مكة يومئذ لأن خزاعة كانوا ولاة البيت قبل قريش وكانوا سائر العرب متشبهين بأهل مكة لأن فيها بيت الله وإليه الحج. فتشبه عمرو بمن رآه فى الشام واستحسن بعقله ما كانـوا عليـه ورأى أن في تحريم ما حرمـه من البحـيرة والسـائبـة والـوصيلة والحامي تعظيماً لله وديناً فكان ما فعله أصل الشرك في العرب وأصل تحريم الحلال فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتى غلب الشرك بالله عز وجل وتغير دينـه الحنيف إلى أن بعث الله رسـولـه ﷺ فأحيـا ملة إبراهيم عليه السلام وأقام التوحيد وحلل ما كانوا يحرمونه، وقوله فأهل رسول الله ﷺ يعني كما فى الحديث الطويل الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أن رسـول الله ﷺ أهـل بالتـوحيـد لبيـك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» وكذلك عبادة الأحبار والرهبان لم تكن لاعتقـادهم فيهم مشـاركـة الله فى ربـوبيتـه بل كان اعتقادهم كما قال الـربيـع بن أنس، قلت لأبى العـاليـة، كيف كانت تلك الـربوبية فى بني إسـرائيـل، قال كانت الـربـوبيـة انهم وجدوا فى كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنـه، فقـالـوا لن نسبق أحبـارنـا بشيء: فما أمرونا به أئتمرنا، وما نهوا عنه انتهينـا، فاستنصحـوا الـرجـال؛ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وقد بين النبي ﷺ ان عبادتهم إياهم كانت فى تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم أو صامـوا لهم، أودعـوهم من دون الله، وفى حديث عدي بن حاتم الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وكان قد قدم على النبي ﷺ وهو نصـراني، فسمعـه يقـرأ هذه الآيـة. قال: فقلت له إنا لسنا نعبدهم. قال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه قال فقلت بلى. قال فتلك عبـادتهم. والصنم هو الـوثن جمعـه أصنـام. وهوما قصد

بنـوع من أنـواع العبـادة من دون الله . من القبور والمشاهد والتماثيل ، يقول الخليل عليه السلام : ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا﴾ مع قولـه : ﴿قـالـوا نعبـد أصنـامـاً فنظـل لها عاكفـين﴾ وقوله : ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام مما عبد من دون الله ، وقيل الصنم هو ما صور على هيئة الإنسان وعبد من دون الله من خشب أو حجر أو ذهب أو فضة أو غير ذلك وقوله : وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقـالات الأولـين والآخرين فى الملل والنحل والآراء والديانات معناه أن البـاحثـين فى الملل والمتحـدثـين عن الـديانات مثل : محمد بن عبد الكريم الشهـرستـاني فى كتـابـه الملل والنحـل ومثـل عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغـدادي في كتـابـه «الفـرق بين الفـرق» . ومثـل أبي محمد علي بن حزم الأندلسي . فى كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» فقد تحدث هؤلاء وغـيرهم عن نحـل العـالم ولم يذكـروا عن أحد إثبات شريك مشارك لله في خلق جميع المخلوقات ولا مماثل له في جميع الصفات .

وقـولـه : سبحـانـه فى آيتي النسـاء ﴿ويغفـر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ معنـاه : أن ما دون الشـرك بالله من سائـر المعاصي فهو تحت المشيئة إن شاء الله عذب مرتكبـه وإن شاء غفـر له ، ففي ذلـك رد على كل من الخـوارج المكفـرين بالـذنوب وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون فى النـار، وليسـوا عندهم بمؤمنين ولا كفار، ولا يجوز أن يحمل قوله : سبحانه ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ على التائب فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ فهنا عم وأطلق ، لأن المراد هنا التائب وهناك خص وعلق لأن المراد به من لم يتب .

قـــــوله :

وبهذا وغيره يعرف ما وقع من اللغلط في مسمى «التوحيد» فإن عامة المتكلمـين الـذين يقـررون التـوحيـد في كتب الكلام والنظر، غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفـاتـه لا شبيـه له وواحـد في أفعـالـه لا شريـك له، وأشهـر الأنواع الثـلاثـة، عنـدهم هو الثالث، وهو توحيد الأفعال، وهو ان خالق العالم، واحـد وهم يحتجـون على ذلـك بما يذكـرونـه من دلالـة التمانع وغيرها، ويظنون ان هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا «لا إله إلا الله» حتـى يجعـلوا معـنى الالهيـة، القـدرة على الاخـتراع ومعلوم، أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولا لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانـوا يقـرون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانـوا يقـرون بالقدرة أيضاً، وهم مع هذا مشركون.

فقد تبين ان ليس في العالم من ينازع في أصل هذا الشرك ولكن غاية ما يقال، ان من الناس من جعل بعض الموجودات خلقا لغير الله كالقدرية وغـيرهم، لكن هؤلاء يقـرون بأن الله خالق العبـاد وخـالق قدرتهم، وان قالوا انهم خالقو أفعالهم.

وكـذلـك أهـل الفلسفـه والطبـع والنجـوم الـذين يجعلون بعض المخلوقـات مبـدعـه لبعض الأمـور، هم مع الاقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة، لا يقولون انها غنية عن الخالق، مشاركة له في الخلق فأما من أنكر الصانع، فذاك جاحد معطل للصانع، كالقول الذى أظهـره فرعـون، والكلام الأن مع المشركين بالله، المقرين بوجوده فان هذا التـوحيـد الـذي قرروه لا ينازعهم فيه هؤلاء المشركون، بل يقرون به مع أنهم مشـركـون، كما ثبت بالكتاب والسنة والاجماع، وكما علم بالاضطرار من دين الإســلام. وكـذلـك النـوع الثـاني، وهـو قولهم، لا شبيـه له في صفاته. فانه ليس في الأمم من أثبت قديما مماثلا له في الاستواء، وقال انه

يشاركه، أو قال، انه لا فعل له، بل من يشبه به شيئا من مخلوقاته فإنما يشبهه به في بعض الأمور. وقد علم بالعقل امتناع أن يكون له مثل في المخلوقات يشاركه فيما يجب أو يجوز أو يمتنع عليه فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين، كما تقدم. وعلم أيضاً بالعقل، ان كل موجودين قائمين بأنفسهما فلابد بينهما من قدر مشترك. كاتفاقهما في مسمى الوجود، والقيام بالنفس، والذات، ونحو ذلك، وأن نفي ذلك يقتضي التعطيل المحض، وانه لابد من إثبات خصائص الربوبية، وقد تقدم الكلام على ذلك.

ش: يقول الشيخ بما تقدم من تقرير توحيد المرسلين الذي هو دين الإسلام بمعناه العام وأن ضده الشرك وهو اتخاذ مع الله ألهة أخرى يتضح خطأ من غلط من أرباب الكلام وأهل التصوف الذين جعلوا الاقرار بربوبية الله الشاملة هو النهاية فى التوحيد، وان معنى كلمة الاخلاص: هو القادر على الاختراع. وقد استدلوا على أن توحيد الربوبية هو الغاية بدليل التمانع المشهور، وهو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول: ممتنع لانه يستلزم الجمع بين النقيضين، والثالث: ممتنع لأنه يستلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع ويستلزم أيضا عجز كل منها والعاجز لا يكون إلهاً، وإذ حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هو الإله القادر والآخر عاجزاً لا يصلح للإلهية، ولا ريب أن هذا غلط واضح واعتقاد فاسد فإن معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق سوى الله. سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وقال: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فأجابوه رداً عليه بقولهم: ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد

أبـاؤ نـا﴾ وقـال تعـالى : ﴿ذلـك بأن الله هو الحق وأنَّما يدعون من دونه البـاطـل وأن الله هو العـلي الكبـير﴾ فالإلـه هو بمعنى المألـوه المعبود الذي يستحق العبـادة، ليس الإلـه بمعنى القـادر على الخلق كما يقول ذلك من يقـولـه من الأشاعرة وغيرهم ، فلو أقر الإنسان بما يستحقه الرب تعالى من الصفـات ونـزهـه عن كل ما ينزه عنه وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحـدا حتى يشهـد أن لا إلـه إلا الله فيقـر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبـادة ويلتـزم بعبـادة الله وحـده لا شريـك له فإن مشـركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ومع ذلك كانوا مشركين. وقد أنكروا ما جاء به ﷺ من التـوحيـد، وما نفاه من الشركاء فقالوا ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحد﴾ أي صيرها إلها واحداً وقصرها على الله سبحانه وقالوا: ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾ أي لأمر بالغ فى العجب إلى الغاية، فهم اذاً أعلم بمعنى كلمـة الاخـلاص من أربـاب الكلام والتصوف، كما كان المشركون يقرون بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة. وبما سبق يتضح أنه ليس أحد من طوائف بني آدم ينـازع فى أصـل الـربـوبيـة على اعتبار وجود ربين متماثلين من كل وجه، بل غاية ما يقال. إن بعض الطوائف المشركة تنسب شيئا من التأثير لغير الله كما تقول القدرية في أفعال العباد بأنها مخلوقة لهم وان كانوا يقرون أن الله هو خالق العباد وخالق قدرتهم على الفعل، وكما تقول المجوس بأن الظلمـة تخلق الشـر مع إقـرارهم أن الله خالق الخـير ويعبر ون عنه بالنور، وكما تقول الفلاسفة بأن الكواكب السبع والأثنى عشر برجا تحدث أموراً من غير إحداث الله لها.

وكـما تقـول: المنـانيـة بأزليـة الطبائع الأربع وأنها كانت بسائط غير ممتزجة ثم حدث الامتزاج بينها فحدث العالم بامتزاجها، وكثير من المشركين قد يظن فى آلهتـه شيئـا من نفـع أوضر، بدون أن يخلق الله ذلـك، فهؤلاء جميعـا مشـركون فى الربوبية بهذا الاعتبار مع اعتقاد جميع هذه الطوائف أن العالم بأسره مخلوق مربوب، للكبير المتعال، غير أن هناك من يجحد ربوبية

الله سبحانه عناداً وتجاهلا كفرعون فهو أشهر من عرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع، وقد كان مستيقنا به فى الباطن، كما قال موسى ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا﴾ وما يقربه هؤلاء النظار لا ينازعهم فيه المشركون الذين بعث إليهم الرسول ﷺ، فانهم يدعون آلهتهم كما يدعون الله ويسجدون وينسكون لها ويتقربون إليها ثم يقولون إن هذا ليس بشرك وإنما الشرك إذا اعتقدنا أنها هي المدبرة لنا فاذا جعلناها سببا وواسطة لم نكن مشركين. ولكن الكلام هنا مع المقرين بالله مع اتخاذهم آلهة أخرى، فهم إذاً مقرون بأن الله رب كل شيء ومليكه ومع هذا فهم غير موحدين بل هم كفار مشركون، كما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام. وقد دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وقد سبق الشيء الكثير من الآيات والأحاديث المصرحة بذلك، وقوله غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع.

فيقولون هو واحد فى ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له وواحد في أفعاله لا شريك له، معناه: أن هؤلاء المتكلمين يقسمون التوحيد فى عرفهم إلى ثلاثة أقسام، أشهرها عندهم توحيد الله بأفعاله ويعبر ون عنها بهذه العبارات المجملة فقولهم واحد إن أرادوا به ما أراده الله ورسوله فى قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد ـ وقوله ـ هو الله الواحد القهار﴾ ونحو ذلك فهذا حق. وإن أرادوا بالواحد ما تريده الجهمية نفاة الصفات: من أنه ذات مجردة عن الصفات فهذا باطل، فانهم يدرجون فى هذا نفي علوه على خلقه واستوائه على عرشه ونفي ما ينفونه من صفاته ويقولون إن إثبات ذلك يقتضي أن يكون مركبا منقسما. ومن المعلوم أن من لا صفة له فلا حقيقة له فى الخارج وإنما يقدر فى الأذهان لا فى الأعيان. وقولهم واحد فى صفاته لا شبيه له إن أرادوا بذلك أنه سبحانه مسمى بالأسماء الحسنى ومتصف بالصفات الكاملة العليا التى لا يماثله فيها أحد

فهذا حق ، وقد علم بالضرورة أنه ليس هناك أحد من بنى آدم اعتقد وجود إله قديم مماثل لرب العالمين فى ذاته سواء كان المعتقد لوجود إله آخر ينسب إليـه نوع شركـة مع الله في أفعـالـه أوكان يعتقـد أن إلهه ليس له شيء من التـدبـير ، بل غايـة ما يقـال أن من شبه به أحداً من خلقه فإنما يشبهه به فى شيء دون شيء ، وأما إن أراد القائل ، المعنى الباطل ، من أنه سبحانه غير مستوعلى عرشه ولا ينزل إلى السماء الدنيا ، ولا يجيء لفصل القضاء يوم القيـامـة ولا يفعـل ما يريـد إلى غير ذلـك فهوملحد ضال ، ومما هومعلوم بصـريـح العقـل المـوافق لصحيح النقل : أن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاتـه ولا في صفـاتـه ولا فى أفعاله بل ذلك ممتنع فانه يلزم منه أن يجوز على مثيله ما يجوز عليـه ، ويجب له ما يجب له ويمتنـع عليـه ما يمتنـع عليـه وهـذا جمع بين النقيضـين لانـه يكـون كل منهـما واجب الوجود ليس بواجب الـوجـود خالقـا ليس بخـالق قديما ليس بقديم إلى غير ذلك ، وقد سبقت الاشـارة إلى هذا فى آخـر القـاعدة السادسة ، كما سبق أيضاً القول بأن كل موجـودين فلابـد أن يكون بينهما قدر مشترك يشتركان فيه كمدلول الوجود ومدلول القيام بالنفس والذات والعلم والقدرة ونحو ذلك من المعاني العـامـة المشـتركة ويختلفان في أن لكل منهما ما يضاف إليه ويليق به فالخالق وإن اتفق مع المخلوق فى أن كلاًّ منهما متصف بالصفات إلا أنهما يختلفان فى أن لكـل منهـما ما ينـاسبـه ، أما اتصاف كل منهما بالصفات فليس فيه مماثلة بينهـما . ولله خصـائصه التى اختص بها وللمخلوق خصائصه التى اختص بها فمن ادعى مشـاركـة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه فهو المشبه الممثل ، والنوع الثالث سيأتى الكلام عليه فى محله قريبا .

قـــــوله :

ثم ان الجهمية من المعتزلة وغيرهم ادرجوا نفي الصفات في مسمى ذلك ، فصار من قال : ان لله علما أو قدرة أو أنه يرى أو أن القرآن كلام الله غير مخلوق . يقـولـون : انـه مشبه ليس بموحد وزاد عليهم غلاة الفلاسفة

والقـرامطـة فنفـوا أسـماءه الحسنى ، وقـالوا : من قال : ان الله عليم قدير ، عزيز حكيم ، فهو مشبه ليس بموحد وزاد عليهم غلاة القرامطة وقالوا : لا يوصف بالنفي ولا بالاثبـات ، لأن في كل منهـما تشبيهـاً له . وهؤلاء كلهم وقعـوا في جنس تشبيـه هو شر مما فروا منـه ، فانهم شبهـوه بالممتنعـات والمعـدومـات والجـمادات ، فراراً من تشبيههم إيـاه بزعمهم - بالأحيـاء ومعلوم ، ان هذه الصفـات الثـابتة لله لا تثبت له على حد ما تثبت لمخلوق أصلا وهو سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله فلا فرق بين إثبات الذات وإثبات الصفات ، فإذا لم يكن في إثبات الذات إثبات مماثلة الذوات لذاته لم يكن في إثبات الصفات إثبات مماثلة له في ذلك فصـار هؤلاء الجهميـة المعطلة يجعلون هذا توحيدا ، ويجعلون مقابل ذلك التشبيه ويسمون أنفسهم الموحدين .

ش : يعني أن المعتـزلـة وأشبـاههم من أهـل التجهم يدخلون نفي أسماء الله وصفـاته في مدلول التوحيد عندهم ، فيقولون من أثبت لله سمعاً أو بصراً أو عزة أو حكمة أو علماً أو قدرة ، أو قال بأن المؤمنين يرونه سبحانه فى الآخرة عياناً بأبصارهم ، من أثبت ذلك ونحوه فهو عندهم مشبه مجسم ، وقد تبعهم فى ذلك الفلاسفة والقرامطة بل زادوا على المعتزلة فى عدم إثبات الاسم ولـو كان غير دال على صفـة وزادوا على بعض الجهميـة فى إثباتهم الاسم مجازاً . وزاد عليهم غلاتهم فقالوا من وصف الله بالاثبات فهو مشبه ومن وصفـه بالنفي فهـو مشبـه . وهؤلاء جميعـاً قد فروا من التشبيـه على زعمهم بالحي المتصف بأوصـاف الكـمال فوقعـوا فى شر مما فروا منه ، حيث شبهوه بالجماد أو المعدوم أو الممتنع ومن المعلوم أن الله جل وعلا متصف بما له من حقائق الأسماء والصفات على وجه لا يماثل فيه أحد من خلقه البته ، إذ هو سبحـانـه الكـامـل فى ذاتـه وصفـاته ﴿وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ وثبوت الصفات هو فرع ثبوت الذات ، فكما أن الذات المقدسة ثابتة بحقيقة الاثبات فالأسماء الحسنى والصفات العلى

ثابتة بحقيقة الاثبات وليست الصفة كالصفة كما أن الموصوف ليس مثل الموصوف. وهؤلاء النفاة قد زعموا أن نفيهم للصفات هو تنزيه الله عن النقص وسموا أنفسهم بالموحدين، وفي واقع الأمر أنهم هم المعطلون الجاحدون المشبهون، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ تشبيه، قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله في «الفقه الكبير» (لا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه ثم قال بعد ذلك وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين. يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا) وهكذا قول سائر الأئمة، كنعيم بن حماد والشافعي وقد سبق ذكر نموذج من ذلك، فسلف الأمة وأئمة السنة ومن تبعهم بإحسان هم ورثة الرسل وهم الموحدون، أما الجعديون والواصليون واضرابهم فهم الملحدون المعطلون، وقوله عن النفاة الذين يصفون من قال إن القرآن كلام الله غير مخلوق، بأنه مشبه معناه أن الجهمية من المعتزلة وإخوانهم يقولون بأن كلام الله مخلوق غير منزل، ويستدل على ذلك، بمثل قوله تعالى ﴿الله خالق كل شيء﴾ ويدخلون كلام الله في عموم كل. وقد غلطوا غلطا فاحشا وضلوا ضلالا مبينا فان القرآن الكريم هو كلام الله وكلامه من صفاته، وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه، وحينئذ فطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة والحياة وسائر الصفات، وذلك صريح الكفر فان علمه شيء وقدرته شيء وحياته شيء فيدخل ذلك في عموم «كل» فيكون مخلوق، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً، ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير أعمى وللأعمى بصير لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره. والأعمى قد قام وصف البصر بغيره؛ إذا عرف هذا فعموم «كل» في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن الا ترى إلى قوله تعالى ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ فمساكنهم شيء، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح، وذلك لأن المراد في الآية كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة واستحق التدمير، وكذا قوله تعالى حكاية عن

بلقيس: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾، فإن المـراد من كل شيء يحتـاج إليـه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمـر الملك غير محتـاجـة إلى ما يكمـل به أمر ملكها، ونظائر هذا كثيرة، فالمـراد من قولـه تعـالى: ﴿خـالق كل شيء﴾ أي كل شيء مخلوق، وكل موجـود سوى الله فهـو مخلوق ولم يدخـل في العمـوم (الخـالق تعـالى) وهـو سبحـانـه موصوف بأوصاف الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة. وشيخ المعتزلة الجهمية: الجعد بن درهم وتلميذه الجهم بن صفوان، هما أول من نقـل عنـه هذا الـرأى الزائغ الفاسد، قال الشيخ: (والناس يقرأون القرآن بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله غير مخلوق، والمداد الـذي يكتب به القـرآن مخلوق والصوت الذي يقرؤ به صوت العبد والعبد وصـوتـه وحـركـاتـه وسـائر صفاته مخلوقة، فالقرآن الذي يقرأه الخلق كلام الباري والصوت صوت القارىء).

قـــوله :

وكذلك النوع الثالث، وهو قولهم: هو واحد لا قسيم له في ذاته أو لا جزء له أو لا بعض له، لفظ مجمل. فان الله سبحانه أحد صمد، لم يلد ولم يولـد. ولم يكن له كفـواً أحـد، فيمتنـع عليـه ان يتفرق، أو يتحيز، أو يكـون قد ركب من أجـزاء، لكنهم يريدون من هذا اللفظ نفي علوه على عرشـه، ومبـاينته لخلقه وامتيازه عنهم ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله، ويجعلون ذلـك من التـوحيـد، فقد تبين ان ما يسمونه «توحيداً» فيـه ما هو حق وفيـه ما هو باطـل، ولـو كان جميعـه حقاً، فإن المشركين إذا أقـروا بذلـك كله لم يخرجـوا من الشـرك الـذي وصفهم الله به في القرآن. وقـاتلهم عليـه الـرسول ﷺ. بل لابد أن يؤمنوا بأنه لا إله إلا الله، وليس المـراد (بـالإلـه) هو القـادر على الاخـتراع ـ كما ظنـه من ظنـه من أئمـة المتكلمين ـ حيث ظن أن الألهية هي القدرة على الاختراع وان من أقر بأن الله هو القـادر على الاخـتراع دون غيره، فقـد شهد أن لا إله إلا الله، فإن

المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون، كما تقدم بيانه بل «الإله» الحق هو الذي يستحق أن يعبد، فهو إله بمعنى (مألوه) لا بمعنى «آله» والتوحيد أن تعبد الله وحده لا شريك له والاشراك أن تجعل مع الله إلها آخر.

ش : يعني أن النوع الثالث من أنواع التوحيد عند أرباب الكلام والتصوف، هو قولهم إن الله واحد فى ذاته لا قسيم له ولا جزء له ولا بعض له وهذا كلام مجمل مشتمل على حق وباطل فقد يراد به معنى صحيح كما إذا قصد به ان الله سبحانه لا يجوز عليه أن يتفرق بل هو أحد صمد. وقد يراد به نفي صفاته. وحينئذ فهم إنما يقصدون تعطيل حقائق أسمائه وصفاته التى هي من لوازم ذاته المقدسة زاعمين أن ذلك من التوحيد. وبما ذكر ينكشف زيغهم ويتضح باطلهم. فإن هذه المعاني التى تتناولها عباراتهم فيها ما يوافق ما جاء به الرسول ﷺ وفيها ما يخالفه. وليس الحق الذي فيها هو الغاية التى جاء بها الرسول بل التوحيد الذي جاء به أمر يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى ومقالتهم هذه هي الكلام الذي لبس فيه الحق بالباطل فلو أقر الانسان بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما تنزه عنه وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً حتى يقر بأن الله وحده هو الاله المستحق للعبادة، والاله بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ليس هو الاله بمعنى القادر على الخلق.

قال ابن جرير (الله أصله الألاه اسقطت الهمزه التى هي فاء الكلمة فالتقت اللام التى هي عين الاسم واللام الزائدة وهي الساكنة فادغمت فى الأخرى فصارتا فى اللفظ لاما واحدة مشددة وأما تأويل الله فانه على معنى ما روي لنا عن ابن عباس قال: هو الذي يألهه كل شيء ويعبده كل خلق. وساق بسنده عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال: الله ذو الألوهية

والعبودية على خلقه أجمعين انتهى فالاله هو الذي تأله القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاء واجلالا ولله عز وجل حق لا يشركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله ولا يطاع إلا الله، وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلها آخر فلا تحب مخلوقا كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فهو من الذين بربهم يعدلون وقد جعل مع الله إلهاً آخر وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض، فان مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وقد سبق ذكر جملة من الآيات الدالة على ذلك. فتبين أن جعل هذا التوحيد الذي يقر به المتكلمون هو الغاية لا يخرجهم عن الشرك، فقد كان المشركون يقرون به ومع ذلك وصفهم الله بالشرك، وقاتلهم الرسول ﷺ فالتوحيد الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو أن يعبد الله وحده لا شريك له، وضده الشرك وهو أن يتخذ مع الله آلهة أخرى.

قوله :

وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار - أهل الاثبات - للقدر المنتسبون إلى السنة، إنما هو توحيد الربوبية، وان الله رب كل شيء ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع انهم مشركون، وكذلك طوائف من أهل التصوف والمنتسبين إلى المعرفة والتحقيق والتوحيد، غاية ما عندهم من التوحيد: هو شهود هذا التوحيد، وان تشهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا سيما إذا غاب العارف عندهم بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده وبمعروفه عن معرفته ودخل في فناء توحيد الربوبية، بحيث يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، فهذا عندهم هو الغاية التى لا غاية وراءها.

ومعلوم ان هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد ولا يصير الـرجـل بمجـرد هذا التـوحيـد مسلماً، فضـلا عن أن يكون وليا لله أو من سادات الأوليـاء وطـائفـة من أهل التصوف والمعرفة يقر رون هذا التوحيد مع إثبـات الصفـات، فيفنون في توحيد الربوبية، مع إثبات الخالق للعالم المباين لمخلوقاته، وآخرون يضمون هذا إلى نفي الصفات، فيدخلون في التعطيل مع هذا. وهذا شر من حال كثير من المشركين.

ش : يعني إذا اتضـح وتقـرر ما سبق من أن أربـاب الكـلام المثبتين لمشيئـة الله النـافـذة وقـدرتـه التامة المنتسبين إلى الشريعة إذا تقرر أن غاية التوحيد عندهم هو الاقرار بأن الله هو رب كل شيء ومليكه وكذلك إذا تبين أن أربـاب التصـوف المـدعـين التحقيق والمعـرفة والزاعمين أنهم بلغوا من التوحيد غايته، إنما حاصل ما عندهم هو الاقرار بربوبية الله الشاملة فليعلم أن هذا هو حقيقة ما أقر به المشركون، ومع ذلك لم يدخلهم هذا الاعتراف فى الاسلام بل نعتهم الله بالشرك فى غير ما آية من القرآن، وقاتلهم رسول الله ﷺ واستباح دمائهم. ثم إن طائفة من الصوفية يقرون بأن الله رب كل شيء ومليكه ويثبتون أسماءه الحسنى وصفاته العليا، وطائفة منهم يعترفون بربـوبيـة الله الشـاملة، أمـا أسـماء الله وصفاته فيجحدونها. وصنعهم هذا أسـوأ حالا من كثـير من المشـركين فانهم كانوا يقرون بأسماء الله وصفاته فى الجملة. والحـاصـل أن هؤلاء النظـار والمتصـوفـة المثبتـين للصفـات منهم والنافين لها غاية ما عندهم من التوحيد: هو الاقرار بأن الله هو خالق الخلق لا خالق لهم غيره ولا رب لهم سواه، أما أن يشرك معه غيره باتخاذ الوسائط ونحـو ذلـك من أنـواع الشـرك فذلك عندهم لا يضر مع الاقرار بالربوبية، وإذا كان ذلك حالهم فكيف يستحقون أن يوصفوا بأنهم مسلمون، فضلا عن أن يوصفـوا بأنهم من أوليـاء الله أو من كبار عظمائهم. وقد تقدم الكثير من الأدلـة على أن هذا هو عين شرك المشـركـين، وقوله: (لا سيما إذا غاب العـارف عنـدهم بموجوده عن معرفته ودخل فى فناء توحيد الربوبية بحيث

يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل) معناه : أن البالغ فى التوحيد عندهم نهايته هو من يصل إلى هذه الحالة ، ومعنى فناء المعرفة في المعروف ، اضمحلال معرفته وتلاشيها فى معروفه وهو الرب سبحانه بأن يغيب بمعروفه عن معرفته كما يغيب بمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره وبمحبوبه عن حبه وبمخوفه عن خوفه ، قال ابن القيم رحمه الله وهذا : لا ريب فى امكانه ووقوعه فان القلب إذا امتلأ بشيء لم يبق فيه متسع لغيره وأنت ترى الرجل يشاهد محبوبه الذي قد استغرق في حبه بحيث تخلل حبه جميع أجزاء قلبه أو يشاهد المخوف الذي امتلأ قلبه بخوفه فتراه دهشا عن شعوره بحبه أو خوفه ، لاستيلاء سلطان المحبوب أو المخوف على قلبه وعدم اتساعه لشهود غيره البته ، لكن هذه حالة نقص لا حالة كمال والكمال وراء ذلك فانه لا أحد أعظم محبة لله عز وجل من الخليلين عليهما الصلاة والسلام وكانت حالهما أكمل من هذه الحال وشهود العبودية أكمل وأتم وأبلغ من الغيبة عنها بشهود المعبود ، فشهود العبودية والمعبود درجة الكمل والغيبة بأحدهما عن الآخر درجة الناقصين فكما أن الغيبة بالعبادة عن المعبود نقص فكذلك الغيبة بالمعبود عن عبادته نقص . فالحق تعالى ، مراده من عبده استحضار عبوديته لا الغيبة عنها فكيف يكون قائماً بحقيقة العبودية من يقول إياك نعبد ولا شعور له بعبوديته البته ، فان حقيقة إياك نعبد ، علم ومعرفة وقصد وإرادة وعمل ، وهذا مستحيل في وادي الفناء . انتهى كلامه رحمه الله ، وسيأتي قريباً مزيد بيان لهذا البحث إن شاء الله تعالى .

قــــوله :

وكان جهم بن صفوان ينفي الصفات ويقول بالجبر ، فهذا تحقيق قول جهم ، لكنه إذا أثبت الأمر والنهي ، والثواب والعقاب : فارق المشركين من هذا الوجه لكن جهما ومن أتبعه يقولون بالارجاء فيضعف الأمر والنهي ، والثواب والعقاب عنده ، والنجارية والضرارية وغيرهم :

يقربون من جهم في مسائل القدر والايمان مع مقاربتهم له أيضاً في نفي الصفات. والكلابية والأشعرية خير من هؤلاء فى باب الصفات «فانهم يثبتون لله الصفات الفعلية، وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية أيضاً كما فصلت أقوالهم فى غير هذا الموضع. وأما في باب القدر ومسائل الأسماء والأحكام فأقوالهم متقاربة، والكلابية: هم أتباع أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، الذي سلك الأشعري خطته وأصحاب بن كلاب كالحارث المحاسبي، وأبى العباس القلانسي ونحوهما خير من الأشعرية في هذا وهذا.

فكلما كان الرجل إلى السلف والأئمة أقرب كان قوله أعلى وأفضل. والكرامية قولهم في الايمان قول منكر لم يسبقهم إليه أحد، حيث جعلوا الايمان قول اللسان وان كان مع عدم تصديق القلب فيجعلون المنافق مؤمناً. لكنه يخلد في النار فخالفوا الجماعة في الاسم دون الحكم وأما في الصفات والقدر والوعد، فهم أشبه بأكثر طوائف المتكلمين الذين في أقوالهم مخالفة للسنة.

ش: يعني أن رئيس أهل التعطيل وزعيم القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله لا مشيئة له فيها ولا اختيار هو جهم، فقد كان يقول بذلك. وقاربه في هذا المذهب الشنيع طائفة النجارية وفرقة الضرارية فقد شابهت هاتان الطائفتان جهم فى التعطيل وفى الغلو فى إثبات القدر، والجهمية يشبهون المشركين حيث يقولون إن التدبير فى أفعال الخلق كله لله تعالى، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار، والمشركون يقولون: لو شاء الله ما اشركنا، فالكل مخاصم لله ومحتج بالقدر، لكن فرق ما بين الجهمية والمشركين أن الجهمية يؤمنون بما يأمر الله به من أوامر كافراده بالعبادة وسائر الطاعات وما ينهى عنه من نواهي كالشرك وسائر المعاصي، وأثبتوا ما يترتب على ذلك من الجزاء ولكن يضعف إيمانهم بذلك قولهم بالارجاء. والكلابية والأشاعرة خير من هؤلاء

الجهميـــة ومن قاربهم حيث أن أصحـــاب ابن كلاب والمنتسبـــين إلى أبي الحسن الأشعري يثبتون لله الصفات الفعلية الاختيارية كالاستواء والنزول والمجيء لفصـل القضـاء ونحـو ذلك، كما أن زعماء هاتين الطائفتين يثبتون بالاضـافـة إلى الصفـات الفعليـة الصفـات الخبر ية كالوجه واليدين ونحو ذلك كما قد بسط الكلام في هذا المقام في غير هذا الموضع. وهذه الطوائف جميعـاً يتشـابهون فى مسألة الأسماء. كالفاسق والكافر والمؤمن كما يتشابهون فى مسألة الحكم على بعض الناس بالايمان والكفر والفسوق، كما يتشابهون أيضـا فى التخبيـط في قدر الله السـابق. والكـلابيـة هم المنسوبون إلى أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان التميمي البصري المتكلم رئيس الطـائفـة الكـلابيـة وهـو من المنتسبين إلى السنة، كانت بينه وبين المعتزلة مناظرات فى زمن المأمون. وتوفى سنة أربعين ومائتين. ويقال لهابن كلاب لشـدة مجادلتـه فى مجلس المناظره، وهو لقب له مأخوذ من الكلاب الذي هو المهماز وهو الحديدة التى على خف رائض الخيل. لا أن كلاباً جده. ولهذا يصـــح أن يقـال الكـلابى بدل ابن كلاب. وابن كلاب هذا الـذي سلك الأشعري منهجه فى كثير من الأقوال الكلامية حين جرى بينه وبين أستاذه الجبـائي المعتـزلي منـاظـرة فى مســائـل الصـلاح والأصلح فتخاصما وانحاز الأشعـري إلى هذه الطـائفة فأيد مقالتهم بمناهج كلامية. ابن كلاب هذا خير من الأشعـريـة في مســائـل الايمان والصفات كما أنه أيضاً خير منهم في مســائـل الأسماء والأحكـام والقدر، كما أن أصحاب ابن كلاب كالحارث المحـاسبي وأبي العبـاس القلانسي وأمثالهما من أصحابه هم أيضاً خير من الأشـاعـرة فى المسـائـل المـذكورة. والظابط فى هذا التفضيل، أنه كلما كان القـول أقـرب إلى الكتـاب والسنة كان أعلى وأفضل من غيره، والكرامية لهم فى مسألـة الايـمان قول شنيـع لم يسبقهم إليـه أحـد من الطوائف، وهو قولهـم إن الايـمان يكـفي فيـــه مجرد النطق باللســـان وإن كان القلب غير مصدق، وعلى هذا فالمنافق عندهم مؤمن لكنهم يحكمون عليه بالخلود فى النار فهو عندهم مؤمن فى الاسم لا في الحكم، أما رأي الكرامية فى مسائل

الصفات والقدر والوعيد فهو شبيه برأي كثير من طوائف المتكلمين الذين يوجد فى آرائهم شيء من الصواب وشيء من مخالفة الشرع، والجبر: لفظ مجمل فانه يقال جبر الأب ابنته على النكاح وجبر الحاكم الرجل على بيع ما له لوفاء دينه. ومعنى ذلك أكرهه ليس معناه جعله مريداً لذلك مختاراً محباً له راضياً به، ومن قال إن الله تعالى جبر العباد بهذا المعنى فهو مبطل فان الله أعلى وأجل قدراً من أن يجبر أحداً، وإنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريداً للفعل مختاراً له راضياً به، والله سبحانه قادر على ذلك فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له راضياً به فكيف يقال أجبره وأكرهه كما يجبر المخلوق المخلوق؛ وإذا أريد بالجبر خلق ما فى النفوس من الاعتقادات فهذا المعنى صحيح، قال الأوزاعي وغيره: ليس في الكتاب والسنة لفظ جبر وإنما فى السنة لفظ جبل كما فى الصحيح أن النبي ﷺ قال: لا شج عبد القيس لما قدم عليه وفد عبد القيس من البحرين «إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما قال بل جبلت عليهما، فقال الحمد لله الذي جبلنى على ما يحب» ومن أجل ذلك أنكر الأوزاعي والثوري وأحمد وغيرهم من السلف لفظ الجبر فى النفي والاثبات، ومن المعلوم بالضرورة أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد وإلى ما يضرهم والله قد بعث رسوله ﷺ يأمر المؤمنين بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فمن لم يتبع شرع الله ودينه تبع ضده من الأهواء والبدع وكان احتجاجه بالقدر من الجدل بالباطل، ليدحض به الحق. والارجاء هو التأخير ولذلك سمي أصحاب هذا الرأي بالمرجئة لأنهم أخروا الأعمال عن الايمان حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسق، وان الناس فى الايمان سواء فايمان أفسق الناس كايمان الأنبياء وان الأعمال الصالحة ليست مخ الايمان، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية، وشبهتهم الواهية هي مثل قولهم الايمان فى اللغة هو التصديق والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لا بغيرها فيكون مراده بالايمان التصديق، ثم قالوا والتصديق إنما يكون

بالقلب واللسان أو القلب فقط، فالأعمال ليست من الايمان قال الشيخ والمرجئة ثلاثة أصناف: الصنف الأول من يقول الايمان مجرد ما فى القلب. والثاني: من يقول هو مجرد قول اللسان وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية. والثالث: من يقول هو تصديق القلب وقول اللسان وهذا هو المشهور عن مرجئة الفقهاء. والحق أن الايمان قول وعمل، قول باللسان وإقرار واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة، وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الايمان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعاصي. وأهل الذنوب مؤمنون غير مستكملي الايمان من أجل ذنوبهم، وإنما صاروا ناقصي الايمان بارتكابهم الكبائر. والخوارج والمعتزلة يقولون إن الدين والايمان قول وعمل واعتقاد ولكن لا يزيد ولا ينقص، ومن أتى كبيرة كفر عند الحرورية وصار فاسقاً عند المعتزلة في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، وأما الحكم فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم فى الآخرة فعندهم أن من أتى كبيرة فهو خالد مخلد فى النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغير شفاعة، أما فى الدنيا فالخوارج حكموا بكفر العاصي واستحلوا دمه وماله وأما المعتزلة فحكموا بخروجه من الايمان ولم يدخلوه فى الكفر ولم يستحلوا منه ما استحله الخوارج، وقابلتهم المرجئة والجهمية ومن اتبعهم فقالوا ليس من الايمان فعل الأعمال الواجبة ولا ترك المحظورات البدنية، فان الايمان لا يقبل الزيادة والنقصان بل هو شيء واحد، والنجارية هم أصحاب الحسين بن محمد النجار وهم وإن اختلفوا أصنافا إلا انهم لم يختلفوا فى المسائل العامة، والضرارية هم أصحاب ضرار بن عمرو، الذي ظهر في أيام واصل بن عطاء، والحارث هو ابن أسد المحاسبي الزاهد الناطق بالحكمة صاحب المصنفات فى التصوف والأحوال وهو أحد شيوخ الجنيد. وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين ومائتين؛ وأبو العباس القلانسي هو أحد متكلمي أهل السنة فى القرن الثالث، وله كتب ورسائل عديدة، والكرامية هم أصحاب أبى عبد الله محمد ابن كرام الذى ظهر ونشر بدعته فى أيام محمد بن طاهر بن عبد الله.

قــــوله :

وأمـا المعتـزلـة، فهم ينفون الصفات، ويقاربون قول جهم لكنهم ينفـون القـدر: فهم وان عظمـوا الأمر والنهي، والوعد والوعيد وغلوا فيه ـ مكـذبـون بالقـدر ففيهم نوع من الشـرك من هذا الباب والاقرار بالوعد والـوعيـد، مع إنكـار القـدر خير من الاقرار بالقدر مع إنكار الأمر والنهى والـوعـد والوعيد، ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين من ينفي الأمر والنهى والـوعـد والـوعيـد ولكن نبغ فيهم القدرية، كما نبغ فيهم الخوارج والحرورية، وإنما يظهر من البدع أولا ما كان أخفى وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة.

فهـؤلاء المتصـوفـون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع اعراضهم عن الأمـر والنهي شر من القـدريـة المعتـزلـة ونحـوهم. أولئـك يشبهـون المجوس، وهؤلاء يشبهون المشركين الذين قالوا «لو شاء الله ما أشركنا ولا آبـاؤنـا ولا حرمنـا من شيء» والمشـركـون شر من المجـوس، فهـذا أصـل عظيم، على المسلم أن يعـرفـه، فانـه أصـل الإسـلام الذي يتميز به أهل الايمان من أهل الكفر وهو الايمان بالوحدانية والرسالة. «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» وقد وقع كثير من الناس فى الاخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما مع ظنه انه فى غاية التحقيق والتوحيد، والعلم والمعـرفـة، فاقـرار المـرء بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله، ان لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله فلا يستحق العبادة أحد إلا هو، وأن محمـدا رسـول الله فيجب تصـديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر فلابد من الكلام في هذين الأصلين.

ش : بعـد أن بين المـؤلف رأي الجهميـة القـائلين بالتعطيل والجبر والارجـاء شرع فى بيـان مذهب المعتزلة كعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغـزال وأضـرابهـما فذكـر أن القـدرية وإن قاربوا جهماً فى التعطيل إلا أنهم يقـولـون إنه لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بالتوبة وإن أهل الكبائر مخلدون فى

النار ويخرجونهم من الايمان بالكلية ويكذبون بشفاعة النبي ﷺ وغيره زعما منهم أنه إذا أوعد عبيده فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعيده، كما يغلون فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدخلون تحت ستار ذلك الخروج على الأئمة، بينما الجهمية المرجئة لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد، بل يغلون فى إرجاء كل أمر فلا يجزمون بثواب من تاب كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب، وبذلك يضعف جانب إثباتهم للأمر والنهي والجزاء على الأعمال، غير أن المعتزلة وإن عظموا جانب الأمر والنهي فهم مكذبون بقدر الله السابق ومعتقدون بأن العبد يخلق فعل نفسه، ومن هذه الجهة فهم مشركون في الربوبية، وإنكارهم للقدر وغلوهم فى الوعد والوعيد وإن كان باطلا إلا أنه خير من إثبات القدر مع الغلو فيه؛ وحينئذ فأهل الكلام وأرباب التصوف المجبرة شر من المعتزلة ونحوهم كالشيعة القدرية فان هؤلاء يعظمون الأمر والنهي والوعد والوعيد وطاعة الله ورسوله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لكن ضلوا فى القدر واعتقدوا أنهم إذا أثبتوا مشيئة عامة وقدرة شاملة وخلقاً متناولا لكل شيء لزم من ذلك القدح فى عدل الرب وحكمته، وقد غلطوا فى ذلك. أما أهل الكلام والتصوف، فأثبتوا القدر وآمنوا بأن الله رب كل شيء ومليكه وأن ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، وأنه خالق كل شيء، وهذا حسن وصواب لكنهم قصروا فى الأمر والنهي والوعد والوعيد وأفرطوا حتى أفضى بهم ذلك إلى الالحاد فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) والقدرية يشبهون المجوس، وهؤلاء المتصوفة المجبرة يشبهون المشركين فأولئك القدرية وإن كانوا يشبهون المجوس من حيث أنهم أثبتوا فاعلا غير الله سبحانه فهؤلاء شابهوا المشركين والمشركون شر من المجوس فإن المجوس يقرون بالجزية باتفاق المسلمين، وذهب بعض العلماء إلى حل نسائهم وطعامهم، وأما المشركون فاتفقت الأمة على تحريم نكاح نسائهم. أما إقرارهم على الجزية فجمهور العلماء على أن مشركي العرب لا يقرون بها وإن أقرت المجوس، فإن النبي ﷺ لم يقبل الجزية من

المشركين بل قال (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل) وبما ذكر من تقرير توحيد الشرع وبيان ارتباطه بالقدر اتضح أن هذا الأصل هو العمدة الذي يميز بين الأبرار والفجار والمسلمين والكفار، فهذا حقيقة التوحيد. شهودا بوحدانية الله وبرسالة رسول الله علما وعملا، خلافا لأرباب الكلام وأهل التصوف الذين يعتقدون أن مشاهدة الربوبية العامة والفناء فى معرفتها هو الغاية فى التوحيد وإن معنى الاله هو القادر على الاختراع. وحينئذ فلابد من تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بأن لا يعبد إله غير الله، وشهادة أن محمداً رسول الله بأن لا يعبد الله إلا بما شرعه رسول الله ﷺ. وقوله ولهذا لم يكن فى زمن الصحابة والتابعين من ينفي الأمر والنهي والوعد والوعيد ولكن نبغ فيهم القدرية كما نبغ فيهم الخوارج والحرورية وإنما يظهر من البدع أولا ما كان أخفى وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة:

يعني ومن أجل أن مقالة المجبرة شر من مقالة نفاة القدر نجد أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يوجد فى عهدهم من ينكر الأمر والنهي والوعد والوعيد، أما إنكار القدر فقد وجد من يقول به في أواخر عهد الصحابة، كما روى مسلم وأبو داود وغيرهما عن يحيى بن يعمر، قال: (كان أول من تكلم فى القدر بالبصرة معبدا الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر داخلا فى المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: (أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا اناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم يزعمون ان لا قدر وان الأمر أنف) فقال: (إذا لقيت أولئك فأخبرهم إني منهم بريء وانهم مني برآء والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله

الله منه حتى يؤمن بالقدر) وروى أحمد وأبو داود عن عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت قال: حدثني أبي قال: (دخلت على عبادة وهو مريض اتخايل فيه الموت فقلت: ياأبتاه أوصني واجتهد لي فقال اجلسوني قال: يابني إنك لن تجد طعم الايمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره قلت ياأبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال تعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك يابني سمعت رسول الله ﷺ. يقول «ان أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يابني إنك ان مت ولست على ذلك دخلت النار) وهذا يدل على بشاعة الاحتجاج بالقدر وإنكار الأمر والنهي والوعد والوعيد، والبدعة إنما تقوى وتنتشر كلما بعد الناس عن نور الرسالة وضعف الدعاة إليها، ولما كان القدر من المسائل الشائكة ذات الخفاء والاشكال وجد من ينكره حتى فى العهد القريب من نور الرسالة. وقد أنكرت هذه البدعة. أشد الأنكار وحوربت أعظم المحاربة، والمجوس هم عبدة النيران القائلون: ان العالم صادر عن أصلين هما النور والظلمة، والمجوس فى الأصل النجوس لتدينهم باستعمال النجاسات والميم والنون يتعاقبان. والمجوس أقدم الطوائف وأصلهم من بلاد فارس، وقد نبغوا فى علم النجوم. ومن جملتهم المانوية المنسوبون إلى أحد زعمائهم وهو مانىء بن فاتك الحكيم الذي ظهر فى زمان شابور بن ازدشير وذلك بعد عيسى عليه السلام. وقد استخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية فهو ثنوي زنديق. (ومنهم المزدكية المنسوبون إلى مزدك الذي ظهر فى أيام قباذ والد انوشروان، وقول المزدكية كقول المانوية فى الأصلين إلا أن مزدك كان يقول النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق) قال الشهرستاني (وكان مزدك ينهي الناس عن المخالفة والمباغضة. والقتال. ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال. أحل النساء والأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ) قال فى حاشية الملل نقلا عن ابن خلدون: (مزدك الزنديق كان

اباحياً وكان يقول باستباحة أموال الناس وانها فيء وانه ليس لأحد ملك شيء ولا حجزه، والأشياء كلها
ملك لله مشاع بين الناس لا يختص به أحد. وقد أمر مزدك أصحابه بتناول اللذات والعكوف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك استبداد بعضهم على بعض. ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه، ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان) واذاً فمذهب المزدكية هو أصل الشيوعية الحمراء التي نادى بها كارل ماركس واحتضنها تلميذه لينين مؤسس الدولة الماركسية التي يغطي دخان جحيمها في هذه الأزمان سماء عدد من الأقطار المفتونة بمعسول قولها والمخدوعة ببريق دعاياتها التي في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب. والخوارج هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين جرى أمر الحكمين واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ «تحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم ويحقر صيام أحدكم في جنب صيامهم ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم وهم المارقة الذين قال فيهم ﷺ سيخرج من ضئضئي هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ويجمع طوائفهم القول بالتبرؤ من عثمان وعلي ويقدمون ذلك على كل طاعة ولا يصححون المناكحة إلا على ذلك. ويكفرون أصحاب الكبائر، وقوله: إنما يظهر من البدع أولا ما كان أخفى يعني أن هؤلاء المجبرة لم يكونوا موجودين في عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان. فإن البدع إنما يظهر منها أولا فأولا. الأخفى فالأخفى كما حدث في آخر عصر الخلفاء الراشدين بدعة الخوارج والشيعة. ثم في آخر عصر الصحابة بدعة المرجئة والقدرية، ثم في آخر عصر التابعين بدعة الجهمية معطلة الصفات. وأما هؤلاء المباحة المسقطون للأمر والنهي محتجين على ذلك بالقدر فهم شر من جميع هذه الطوائف. وإنما حدثوا بعد هؤلاء كلهم، وكان ظهور جهم ومقالته في تعطيل الصفات. وفي الجبر والارجاء في أواخر

دولـة بني أميـة بعـد حدوث القدرية والمعتزلة وغيرهم . فإن القدرية حدثوا قبل ذلك فلما حدثت المقالة المقابلة . لمقالة القدرية أنكرها السلف والأئمة كما أنكـروا قول القـدريـة من المعتـزلـة ونحـوهم ، (والـوعيـد) التخـويف والتهـديـد وضـده الـوعد ، فالوعيد والايعاد فيما يحضر ويخاف منه . والوعد والعده فيما يرغب ويشتاق إليه .

قال الشاعر :

وإني وإن أوعـدتـه أو وعـدتـه لمخلف إيعـادي ومنجـز موعـدي

ومـذهب أهـل السنـة والجـماعـة فى نصـوص الـوعيد هو إمرارها كما جاءت وعدم التعرض لها بالتأويل قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن فى فتح المجيـد . عنـد شرحـه لقوله ﷺ . فى حديث أبى موسى (ثلاثة لا يدخلون الجنـة مدمن الخمـر ومصـدق بالسحـر وقـاطـع الرحم) ما نصه : (هذا من نصـوص الـوعيد التى كره السلف تأويلها وقالوا : أمروها كما جاءت . ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم وأحسن ما يقال : ان كل عمـل دون الشـرك والكفـر المخـرج عن ملة الإسلام فانه يرجع إلى مشيئة الله . فان عذبه فقد استوجب العذاب . وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته) انتهى .

قـــــوله :

الأصـل الأول توحيـد الاهيـة ، فانه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بانهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون اذن الله ، قال تعـالى : ﴿ويعبـدون من دون الله ما لا يضـرهـم ولا ينفعهم ويقـولـون هؤلاء شفعـاؤنا عند الله قل أتنبؤون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وقال عن مؤمن يس : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ، إني اذا لفي ضلال مبين ، إني

آمنت بربكم فاسمعون﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ وقال تعالى: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً، له ملك السموات والأرض، ثم إليه ترجعون﴾ وقال تعالى: ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ وقال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون﴾ وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ قال طائفة من السلف كان قوم يدعون العزير والمسيح فأنزل الله هذه الآية، يبين فيها أن الملائكة والأنبياء يتقربون إلى الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه ومن تحقيق التوحيد ان يعلم، ان الله تعالى أثبت له حقاً لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والتقوى، كما قال تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا﴾ وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ وقال تعالى: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون؟﴾ إلى قوله: ﴿الشاكرين﴾ وكل واحد من الرسل قال لقومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال تعالى في التوكل: ﴿وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين﴾ وقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وقال: ﴿حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾ وقال تعالى: ﴿ولو

أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، انا إلى الله راغبون﴾ فقال في الايتاء: ﴿ما آتاهم الله ورسوله﴾ وقال في التوكل: ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ ولم يقل ورسوله لأن الايتاء هو الاعطاء الشرعي، وذلك يتضمن الاباحه والاحلال الذي بلغه الرسول، فان الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه، قال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وأما الحسب فهو الكافي والله وحده هو كاف عبده، كما قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس، ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ فهو وحده حسبهم كلهم، وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله، فهو كافيكم كلكم وليس المراد ان الله والمؤمنين حسبك كما يظنه بعض المغالطين، إذ هو وحده كاف نبيه، وهو حسبه ليس معه من يكون هو وإياه حسبا للرسول، وهذا في اللغة كقول الشاعر: «فحسبك والضحاك سيف مهند» وتقول العرب: حبك وزيداً درهم أي يكفيك وزيداً جميعاً درهم وقال في الخوف والخشية والتقوى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه، فأولئك هم الفائزون﴾ فأثبت الطاعة لله وللرسول وأثبت الخشية والتقوى لله وحده، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إني لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ فجعل العبادة والتقوى لله وحده وجعل الطاعة له، فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله، وقد قال تعالى: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ وقال تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين﴾ وقال الخليل عليه السلام: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون﴾ وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود، أنه قال: «لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: واينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي

ﷺ: إنما هو الشرك الم تسمعوا إلى قول العبد الصالح، ان الشرك لظلم عظيم» وقال تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾، ﴿وإياي فاتقون﴾ ومن هذا الباب، ان النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فانه لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئا» وقال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد» ففي الطاعة قرن اسم الرسول باسمه بحرف الواو وفي المشيئة أمر أن يجعل ذلك بحرف «ثم» وذلك لأن طاعة الرسول طاعة لله، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وطاعة الله طاعة للرسول بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة لله ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد، بل ما شاء الله كان وان لم يشأ الناس وما شاء الناس لم يكن، إن لم يشاء الله.

الأصل الثاني: في حق الرسول ﷺ، فعلينا أن نؤمن به ﷺ ونطيعه ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه وأمثال ذلك: قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقال تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ وقال تعالى: ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ وأمثال ذلك.

ش: هذا شروع في بيان ما أجمله المؤلف في قوله (فلابد من الكلام على هذين الأصلين) وتحقيقهما هوكما قال المؤلف قبل ذلك (فاقرار المرء بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه. لا ينجيه من عذاب الله إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله فلا يستحق العبادة أحد إلا هو. وان محمداً رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر. وطاعته فيما أمر) وقد شرح الأول

بقـولـه (الأصل الأول توحيد الالهية . فانه سبحانه أخبر عن المشركين ـ كما تقـدم بأنهم أثبتـوا وسـائط بينه وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله) يعني فلابد من تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله فان الله سبحانه قد كفر الذين دعوامعه آلهة أخرى أو تقربوا بهم إليه واتخذوهم وسطاء وشفعاء دون أن يأذن الله لهم بذلـك . ثم استشهـد المؤلف بجملة آيـات تصـرح بشرك وكفر من دعا غير الله ، والتمس منه الشفاعة ، وتبين الآيات أنهم لا يملكـون لهم ضراً ولا نفعـاً وأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى وأنه لا شفاعة عنـد الله إلا بإذنـه وأن هؤلاء المـدعـوين من ملائكـة وأنبيـاء وصـالحين لا يملكـون لأنفسهم ضراً ولا نفعـاً فضلا عن أن يملكوا ذلك لغيرهـم وليس لهم من شرك في السمـوات ولا فى الأرض ولا يملكـون مثقـال ذرة فيهـما . وليس لله منهم عوين ولا نصـير بل الكـون كله بأسـره ملكه وتحت تصرفه ، ثم بين المؤلف أن من تحقيق هذا الأصل أن يفرد الله جل وعلا بكل أنواع العبادة من خوف ورجاء وتوكل ورغبة وخشية وقد استشهد بعدة آيات فيها التصـريـح باستحقـاق الله وحـده سائر أنواع العبادات وإفراده بها دون من سواه ، وأشار إلى بعض الأسرار التى تؤخذ من تعبير الآيات الكريمات كما فى قولـه سبحـانـه : ﴿ولـو أنهم رضوا ما آتاهـم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيـؤتينـا الله من فضله ورسـولـه إنا إلى الله راغبون﴾ وكما فى قوله : ﴿ومن يطـع الله ورسـولـه ويخش الله ويتقـه فأولئك هم الفائزون﴾ وقوله عن نوح عليـه السـلام : ﴿ان اعبـدوا الله واتقـوه وأطيعـون﴾ وقد بين الثاني بقوله : «الأصـل الثـاني في حق الـرسول ﷺ فعلينا أن نؤمن به ﷺ ونطيعه ونرضيه ونحبـه ونسلم لحكمـه وأمثـال ذلك» يعني ولابد من تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله بأن يطاع فى كل ما أمر ويجتنب ما عنه نهى وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ، وذلـك يتضمن تقـديم طاعتـه على طاعـة كل أحـد ومحبتـه وإرضـائـه باتبـاعـه ، وقـد استشهد الشيخ على وجوب تحقيق هذا الأصل بجملة آيات ، تبين أن طاعة الرسول طاعة لله وأن محبته ورضاه ، مقرون برضاه .

قال الشيخ وبالجملة فمعناه أصلان عظيمان : أحدهما أن لا نعبد إلا الله والثاني : أن لا نعبده إلا بما شرع فلا نعبده بعبادة مبتدعة . وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك تحقيق قوله تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي لفظ في الصحيح «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وفي الصحيح وغيره أيضاً «يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك» وقد سبق ايضاح أنه ما من رسول إلا وقد أمر بأن يقول لقومه «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» وقوله : قال طائفة من السلف يعني كمجاهد وابن عباس وقوله : وقال تعالى : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أي «حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله إلى آخره» المعنى إن الله وحده كافيك وكافي اتباعك فلا تحتاجون معه إلى أحد ، وهذا اختيار المحققين ؛ كالشيخ رحمه الله ، وقيل المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون ، قال ابن القيم رحمه الله : (وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه فان الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة ، قال الله تعالى : ﴿وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ ففرق بين الحسب والتأييد فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله ونظير هذا قوله سبحانه : ﴿وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ فتأمل كيف جعل الايتاء لله ورسوله وجعل الحسب له وحده فلم يقل وقالوا حسبنا الله ورسوله بل جعله خالص حقه كما قال : ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ فجعل الرغبة إليه وحده كما قال : ﴿وإلى ربك فارغب﴾ فالرغبة والتوكل والانابة

والحسب لله وحده كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والخشية لا يكون إلا له سبحانه وتعالى) وتقرير الشيخ لهذا المعنى هو الموافق لما جاء فى اللغة العربية: كما فى قول الشاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا　　فحسبك والضحاك سيف مهند

فان المعنى يكفيك سيف مهند مع الضحاك، ومعنى حسبك وزيداً درهم أي يكفيك أنت وزيد مجتمعين درهم واحد، وقوله: وقال الخليل عليه السلام ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا. فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ إلى آخره، المعنى هو كما قال بن جرير عن الربيع بن أنس قال الايمان: الاخلاص لله وحده، وقال ابن كثير في الآية أي هؤلاء الذين اخلصوا العبادة لله وحده ولم يشركوا به شيئاً هم الأمنون يوم القيامة المهتدون فى الدنيا والآخرة. قال الشيخ فى معنى حديث ابن مسعود (والذي شق عليهم انهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم فكان من أهل الأمن والاهتداء كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك كان له الأمن التام والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له مطلق الأمن والاهتداء بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى النصوص الأخرى وقد هداه الله إلى الصراط

المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من ايمانه بظلمه لنفسه وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «إنه الشرك» ان من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف وحينئذ فمن لم يفرد الله سبحانه بجميع أنواع العبادة فانه لم يحقق هذا الأصل، ثم بين المؤلف فى معرض ذكره لبعض أسرار التعبير أن من هذا القبيل قول النبي ﷺ في خطبته من يطع الله ورسوله بينما قال فى المشيئة لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد ففرق بين الطاعة والمشيئة، وقوله ﷺ ومن يعصهما هو مثل قوله ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه قال: «لما كان يوم خيبر أمر رسول الله ﷺ أبا طلحة فنادى ان الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فانها رجس» متفق عليه بتثنية الضمير لله تعالى ولرسوله، وقد ثبت أنه ﷺ «قال للخطيب الذي قال فى خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما الحديث، بئس خطيب القوم أنت» لجمعه بين ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ وقال قل «ومن يعص الله ورسوله» وقد أجيب عن هذا الاشكال بجوابين أحدهما أنه ﷺ نهى الخطيب عن ذلك لأن مقام الخطابة يقتضي البسط والايضاح فأرشده إلى أن يأتي بالاسم الظاهر لا بالضمير وأنه ليس العتب عليه من حيث جمعه بين ضمير الله وضمير رسول الله ﷺ، والثاني أنه ﷺ له أن يجمع بين الضميرين وليس ذلك لغيره لعلمه بجلال ربه وعظمته، وقوله: ومن هذا الباب أن النبي ﷺ كان يقول فى خطبته الخ، يشير إلى ما رواه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان إذا تشهد قال: الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيرا بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فانه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله

شيئاً» وقوله: وقال لا تقول ما شاء الله وشاء محمد، يشير إلى ما رواه النسائي من حديث قتيلة بنت صيفي الأنصارية رضي الله عنها «أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقول ورب الكعبة: وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت» وقوله: «بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله» يعني: كما جاء فى الأثر أن رسول الله ﷺ قال: «كل ما هو آت قريب، لا بعد لما هو آت، ولا يعجل الله لعجلة أحد، ولا يخف لأمر الناس» ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الله شيئاً ويريد الناس شيئاً، وما شاء الله كان ولوكره الناس، ولا مبعد لما قرب الله، ولا مقرب لما بعد ولا يكون شيء إلا بإذن الله» وما أحسن قول الامام الشافعي:

فما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ... ففى العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسن

وعشيرتكم: قبيلتكم وهو بنو أب واحد.
واقترفتموها: اكتسبتموها، وكساد التجارة: بوارها.
والتربص: الانتظار.

فصـــــــل

قـــــوله :

إذا ثبت هذا فمعلوم، انـه يجب الايـمان بخلق الله وأمره، وبقضائه وشـــرعـه وأهـل الظـلال الخـائضـون في القـدر انقسمـوا إلى ثلاث فرق مجوسيـة، ومشـركية، وإبليسية. فالمجوسية: الذين كذبوا بقدرة الله، وان آمنـوا بأمـره ونهيـه، فغـلاتهم أنكروا العلم والكتاب ومقتصدوهم أنكروا عمـوم مشيئتـه وخلقـه وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم، والفرقة الثـانيـة: المشـركية: الذين أقروا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي، قال تعـالى: ﴿سيقـول الـذين أشركوا، لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنـا من شيء﴾ فمن احتـج على تعطيـل الأمـر والنهي بالقـدر فهـو من هؤلاء، وهـذا قد كثـر فيمن يدعي الحقيقـة من المتصوفة. والفرقة الثالثة: وهم الابليسيـة: الـذين أقروا بالأمرين لكن جعلوا هذا تناقضاً من الرب سبحانه وتعالى وطعنوا في حكمته وعدله كما يذكر عن إبليس مقدمهم كما نقله أهل المقالات، ونقل عن أهل الكتاب.

ش : يقـول الشيـخ إذا تقـرر أن أصـلٍ الـدين وزبدة التوحيد: هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله. فلابد بالاضافة إلى ذلـك من الايـمان بخلق الله وبقضائه وشرعه وأمره، فإن الايمان بالقدر السابق مرتبط بالايمان بالشرع ارتباطاً وثيقاً فالايمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه علم الأشياء وكتبها قبل أن تكون مستلزم للايمان بأن الله شرع الشـرائـع، فأمر ونهى ووعد وتوعد وسيجازي كلا بعمله ـ ولا يظلم ربك أحدا ـ وأهل الزيغ المخبطون فى قدر الله انقسموا فى هذا الباب إلى ثلاثـة أصنـاف مجوسيـة ومشـركيـة وإبليسيـة، فالمجـوسية هم القدرية.. المشبهون بالمجوس لاخراجهم أفعال العباد عن قدرة الله وهم قسمان: غلاة ومقتصدون فالغلاة أنكروا مرتبتي العلم والكتابة كمعبد الجهني وهشام بن

عمرو الغوطي أما غير الغلاة منهم فلم ينكروا المرتبتين السابقتين وإنما أنكروا عموم مرتبتي الخلق والمشيئة، واذا فهذا الصنف هم المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة، فهنا أربع مراتب، أولاً: مرتبة العلم السابق، ثانياً: مرتبة الكتابة وهي أن الله كتب مقادير الخلائق وما هو كائن إلى يوم القيامة، في اللوح المحفوظ، ثالثاً: مرتبة المشيئة وهي إثبات مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، رابعاً: مرتبة الخلق والايجاد فكل ما سوى الله فهو مخلوق موجود كائن بعد أن لم يكن، قال الحافظ بن رجب: (والايمان بالقدر على درجتين، أحدهما: الايمان بأن الله سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة. ومن هم منهم من أهل النار. وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه. والدرجة الثانية: أن الله خلق أفعال العباد كلها من الكفر والايمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم فهذه الدرجة يثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم) الصنف الثاني هم الذين اعترفوا بالقضاء والقدر وزعموا أن ذلك لا يوافق الأمر والنهي واحتجوا بالقدر. تماماً كما قال المشركون فيما حكى الله عنهم ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ ﴿ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ ﴿ولو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ فهؤلاء حقيقة أمرهم تعطيل الشرائع والأمر والنهي مع الاعتراف بالربوبية العامة، وهذا الاعتقاد الفاسد قد فشى في كثير من أهل التصوف المدعين التحقيق والمعرفة وهم مجبرة المشركية.

الصنف الثالث: ـ أقروا بالأمر والنهي وبالقضاء النافذ والقدر السابق ولكن جعلوا الجمع بين هذا وذاك تناقضا من الرب تعالى وتقدس عن قولهم علوا كبيراً، فطعنوا في حكمة الرب عز وجل وعدله، وهؤلاء هم الملاحدة والزنادقة المشبهون برئيسهم إبليس في اعتراضه على ربه، كما نقل ذلك عن أهل الكتاب، فيما حكاه أرباب المقالات كالشهرستاني فقد

ذكـر في كتـابه ـ الملل والنحل ـ أنه جاء في التوراة وفي شرح الأناجيل ، (أن إبليس لعنـه الله اعـترض على ربه باعتراضات منها قوله : إني سلمت أن البـاري تعـالى إلهي وإلـه الخلق عالم قادر ولا يسأل عن قدرته ومشيئته فانه مهما أراد شيئا قال له كن فيكون وهو حكيم ولكن لقد علم قبل خلقي أي شيء يصـدر عني ويحصـل مني فلم خلقني أولا وما الحكمة في خلقه إياي ، وقـال إذ خلقني على مقتضى ارادتـه ومشيئة فلم كلفني بمعرفته وطاعته وما الحكمة في التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية) قال شارح الأنجيـل فأوحى الله تعـالى إلى الملائكة عليهم السلام أن قولوا له إنك في تسليمـك الأول إني إلهـك وإلـه الخلق غير صادق ولا مخلص إذ لو صدقت إني إله العالمين ما احتكمت على بلم فأنا الله الذي لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعـل والخلق مسـؤلون) قال الشيخ : (وهو سبحانه خـالق كل شيء وربه ومليكه وله فيها خلقه حكمـة بالغة ونعمـة سابغـة ورحمة عامة وخاصة وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لا لمجرد قدرته وقهره بل لكمال علمه وقدرتـه ورحمتـه وحكمتـه فانـه سبحـانـه وتعالى أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين) والخوض هو اعتقـاد الباطل والتكلم به في آيـات الله وأحـاديث رسول الله ﷺ .

قـــــوله :

والمقصود ان هذا مما تقوله أهل الضلال ، وأما أهل الهدى والفلاح ، فيـؤمنـون بهذا وهـذا ويـؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وما شاء كان ومـا لم يشأ لم يكن ، وهـو على كل شيء قدير ، وأحاط بكل شيء علماً ، وكل شيء أحصاه في إمام مبين ، ويتضمن هذا الأصل ، من إثبات علم الله وقـدرتـه ومشيئته ، ووحدانيته وربوبيته وانه خالق كل شيء وربه ومليكـه ، ما هو من أصـول الايـمان ومـع هذا لا ينكـرون ما خلق الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات ، كما قال تعالى : ﴿حتى اذا أقلت سحاباً ثقـالا سقنـاه لبلد ميت فأنـزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ وقال

تعـالى: ﴿يهـدي به الله من اتبـع رضـوانـه سبـل السـلام﴾ وقال تعالى: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ فأخبر انه يفعل بالأسباب، ومن قال انه يفعـل عنـدهـا لا بها فقـد خالف ما جاء به القرآن، وأنكر ما خلقه الله من القوى، والطبائع وهو شبيه بإنكار ما خلقه الله من القوى، التي في الحيوان التي يفعل بها مثل قدرة العبد، كما أن من جعلها هي المبدعة لذلك، فقد أشرك بالله، وأضاف فعله إلى غيره، وذلك، انه ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول مسببه، ولابد من عدم مانع يمنع مقتضـاه، اذا لم يدفعـه الله عنـه فليس في الوجود شيء واحد يفعل شيئا إذا شاء، إلا الله وحــده، قال تعـالى ﴿ومن كل شيء خلقنـا زوجـين لعلكم تذكرون﴾، أي فتعلمون أن خالق الأزواج واحد.

ش: يقـول الشيـخ: والخـلاصة أن مقالة الأصناف الثلاثة هي مما افتراه أهل الزيغ والالحاد أما أهل الايمان والتوحيد والاستقامة على الشرع فيؤمنون بقدر الله السابق وبما شرعه من شرائع وأن الله خالق كل شيء ولا يكـون في ملكـه إلا ما يريـد وأنه بكل شيء عليم وكل شيء قد أحصاه في إمـام مبـين، والايـمان بهذا الأصـل هو أحـد دعـائم الايـمان بوحدانية الله وربوبيته الشاملة ومع الاقرار بما ذكر، فأهل الايمان والتوحيد لا ينكرون ما خلقـه الله من الأمـور التى جعلها الله سببا فى حصول المسببات، وذلك أن الله علم الأشيـاء على ما هي عليـه وقد جعل لها أسبابا بها يعلم أنها تكون فلابـد من الأسبـاب التي قد علمها الله سبحانه وتعالى فلا ينال العبد شيئاً إلا بما قدره الله من جميع الأسباب والله خالق ذلك الشيء وخالق الأسباب «ولهـذا قيـل: الالتفـات إلى الأسبـاب شرك فى التـوحيد ومحو الأسباب أن تكـون أسبـابـاً نقص في العقـل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع» ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب بل لابد من تمام الشروط وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره (مثال ذلك الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب المنافع أودفع المضار فإن الكلمات بمنزلة

الآلـة فى يد الفـاعل تختلف باختلاف قوته وما يعينها وقد يعارضها مانع من الموانـع وكثـيراً ما تجد أدعيـة دعـا بها قوم فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالـدعـاء ضرورة صاحبـه وإقبـاله على الله أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحـانـه إجـابـة دعـوتـه شكـراً لحسنتـه أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيبت دعوته فيظن إن السر فى ذلك الدعاء فيأخذه مجردا عن تلك الأمور التى قارنتـه من ذلـك الداعي قال الشيخ : وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعـاً فى الـوقت الـذي ينبغي فانتفـع به فظن آخـر أن استعمال هذا الدواء بمجـرده كاف فى حصـول المطلوب وكان غالطا فالأدعية والتعوذات والرقى بمنـزلـة السلاح والسلاح بضاربه لا بحده فقط فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً والساعد ساعداً قويا والمحل قابلا والمانع مفقوداً حصلت به النكاية فى العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير ، فاذا كان الدعاء فى نفسـه غير صالـح أو الـداعي لم يجمـع بين قلبه ولسانه فى الدعاء أو كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الأثر) والشاهد من آية الأعراف أن الله أخبر أن انشـاء السحـاب سبب للمطـر، (روى أبو الفرج بن الجوزي باسناد يرفعه إلى عبيد بن عمير أنه قال : يبعث الله ريحا فتقم الأرض، ثم يبعث المثيرة فتثـير السحـاب وذلـك أنها تحمل الماء فتمجه فى السحاب، ثم يمر به فيدر كما تدر اللقحـة ، وقـد روي فى الأثـر أن الـرياح أربع : ريح تقم وريح تثير فتجعله كسفا وريح تؤلـف ، فتجعله ركاماً ، وريح تمطر. «وروي عن عبد الله بن عبـاس (رضي الله عنهـما) أنـه قال إن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحـابـا . وينـزل عليه المطر فتتمخض به الريح كما تمخض النتوج بولدها» وأن الماء سبب لانبات النبات ، قال تعالى : ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعـة فإذا أنـزلنـا عليهـا الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ والشـاهـد من آية المائدة والبقرة : أن القرآن الكريم سبب فى الهداية ، لقوم ويكون سبب فى الاضلال ، لقوم آخرين كما بين الله ذلك بقوله : ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأمـا الـذين كفـروا فيقـولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به

كثيرا ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعـد ميثـاقـه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ فأما من زعم أن الله يفعل عند حصول السبب فقد أنكر ما صرح به القرآن العزيز من أن الله يفعل بالسبب، وأنكر أيضا ما خلقه من القوى والطبائع التى كونها الله فى المخلوقات كالقوة المحرقة التي جعلها الله من طبيعـة النـار، وكالقوة المبردة التى جعلها من طبيعة الثلج وكالقوة التى وهبهـا الله للانسـان فبها يقوم ويقعد ويعمل ويتلذذ ويتصرف، وكالاسكار الـذى جعله الله من طبيعـة الخمـر، وكطبيعة مني الرجال الذي يحصل منه الولد، ومني الجمال الذي تحصل منه الأبل، إلى غير ذلك من الطبائع التي جبل الله خلقه عليها. فسبحان مبدع الخلق الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، كما أن من جعل الحيوان هو الذي يوجد فعل نفسه، أو جعل شيئا من الأمور الطبيعية يفعل بمقتضى طبيعته فقد أشرك مع الله غيره فى الخلق باضـافـة فعل ذلك الشيء إلى غير الله، وقد سبق إيضاح أنه ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر لا استقلال له البته، ولابد أيضاً في حصـول المسبب من انتفـاء المـوانـع مع قبول المحل، والله تبارك وتعالى خالق الأسبـاب ومسببـاتهـا، فما من أحد يفعل بالاستقلال ما يريد إلا رب كل شيء ومليكـه، قال عز وجـل: ﴿ومن كل شيء خلقنـا زوجين لعلكم تذكرون﴾ يعني فتعلمون أن خالق الزوجين من جميع أصناف الخلق واحد لا إلـه للخلق غيره ولا رب لهم سواه. قال الشيـخ وأمـا الأسبـاب المخلوقة كالنـار. فى الاحـراق، والشمس فى الاشراق والطعام والشراب فى الاشباع والارواء ونحو ذلك فجميع هذه الأمور سبب لا يكون الحادث به وحده بل لابد أن ينضم إليه سبب آخر، فالمطر وحده لا ينب النبات إلا بما ينضم إليه من الهـواء والـتراب وغـير ذلـك ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسـدة له والطعـام والشـراب لا يغذي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقـوى، ومجمـوع ذلـك لا يفيـد إن لم تصـرف المفسدات والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو مع أن الله يخلق فيه الارادة والقوة والفعل. فلا يتم ما

يفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعينه على مطلوبه، ولو كان ملكا مطاعا ولابد أن يصرف عن الأسباب المعينة ما يعارضها ويمانعها، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضي وعدم المانع.

قـــــوله :

ولهذا من قال: ان الله لا يصدر عنه إلا واحد لأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد كان جاهلا فانه ليس في الوجود واحد صدر عنه وحده شيء لا واحد ولا اثنان إلا الله الذي خلق الأزواج كلها، ﴿مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ فالنار التى جعل فيها حرارة لا يحصل الاحراق إلا بها، وبمحل يقبل الاحتراق فاذا وقعت على السمندل والياقوت ونحوهما لم تحرقهما وقد يطلى الجسم بما يمنع احراقه والشمس التي يكون منها الشعاع لابد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه فاذا حصل حاجز من سحاب أو سقف، لم يحصل الشعاع تحته وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

ش : يعني ومن أجل أن الباري سبحانه هو خالق الأسباب والمسببات والجاعل من كل زوجين اثنين كانت مقالة أهل الضلال بأن الله لا يصدر عنه إلا واحد لأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد قولا باطلا وضلالا مبينا، فانه ليس فى الوجود أحد صدر عنه واحد أو اثنان بالاستقلال غير خالق الأزواج كلها ﴿مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ وكمثال على أنه لابد مع حصول السبب من انتفاء المانع مَثَّلَ الشيخُ بالنار والشمس، فالنار قد أودعها الله تعالى قوة الاحراق ولكن لا يحصل هذا إلا فى المحل القابل، ولهذا فالسمندل والياقوت قد جعل الله فيهما طبيعة تضاد الاحتراق، كما أن بعض الأدهان قد خلق فيها مناعة تنافي الاحتراق فلا يحترق الجسم المطلي بها، وكذلك الشمس قد أودع الله فيها طبيعة الحرارة ولكن لابد مع حصول هذه الحرارة من انتفاء الموانع، فالجسم الذي تحت سقف لا تصيبه حرارتها لعدم انعكاس شعاعها عليه،

وكذلك إذا وجد السحاب لم ينفذ شعاعها إلى ما تحته فلابد من وجود جسم ينعكس عليه شعاعها مع انتفاء الموانع، وحينئذ فليس وجود السبب كافياً في حصول المسبب بل لابد مع ذلك من انتفاء الموانع، والسمندل هو كما قال فى القاموس المحيط: (طائر بالهند لا يحترق بالنار) والياقوت هو من الجواهر معرب أجوده الأحمر الروماني وقد ذكرنا فيما سبق أن أهل الالحاد يدخلون فى مسمى الواحد عندهم نفي أوصاف الرب جل وعلا، فقولهم واحد لا قسيم له مثل قولهم الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، ومن المعلوم أنه ليس فى كلام العرب بل ولا عامة أهل اللغات أن الذات الموصوفة بالصفات لا تسمى واحداً، بل المنقول بالتواتر عن العرب تسمية الموصوف بالصفات واحداً ووحيداً قال تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وهو الوليد بن المغيرة وقال تعالى: ﴿فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ فسماها وهي امرأة متصفة بالصفات واحدة ويقال إنه أحد الرجلين، ويقال للأنثى إحدى المرأتين ويقال للمرأة واحدة، وللرجل واحد ووحيد، ولم يعرف أنهم أرادوا بهذا اللفظ ما لم يوصف بالصفات أصلا، قال الشيخ وهذا مما يبين لك خطأ المتفلسفة الذين قالوا: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد واعتبروا ذلك بالآثار الطبيعية كالمسخن والمبرد ونحو ذلك فان هذا غلط، فان التسخين لا يكون إلا بشيئين (أحدهما) فاعل كالنار (والثاني) قابل كالجسم القابل للسخونة والاحتراق وإلا فالنار إذا وقعت على السمندل والياقوت لم تحرقه، وكذلك الشمس فاشعاعها مشروط بالجسم المقابل للشمس الذي ينعكس عليه الشعاع، وله موانع من السحاب والسقوف وغير ذلك.

قوله:

والمقصود هنا انه لابد من الايمان بالقدر، فان الإيمان بالقدر من تمام التوحيد، كما قال ابن عباس: «هو نظام التوحيد» فمن وحد الله وآمن بالقدر، تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقص توحيده ولابد من

الايمان بالشرع وهو الايمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه، والانسان مضطر إلى شرع في حياته الدنيا، فانه لابد له من حركة يجلب بها منفعته وحركة يدفع بها مضرته، والشرع هو الذي يميز له بين الأفعال التي تنفعه والأفعال التي تضره، وهو عدل الله في خلقه، ونوره بين عباده فلا يمكن للآدميين أن يعيشوا بلا شرع يميزون به بين ما يفعلونه وما يتركونه وليس المراد بالشرع مجرد العدل بين الناس في معاملاتهم، بل الانسان المنفرد لابد له من فعل وترك فان الانسان همام حارث كما قال النبي ﷺ «أصدق الأسماء حارث وهمام» وهو معنى قولهم (متحرك بالارادات) فاذا كان له ارادة فهو متحرك بها ولابد أن يعرف ما يريده، هل هو نافع له أو ضار؟ وهل يصلحه أو يفسده وهذا قد يعرف بعضه الناس بفطرتهم، كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم وبعضهم يعرفه بالاستدلال الذي يهتدون إليه بعقولهم، وبعضه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم وهدايتهم لهم.

ش : يعني والحاصل مما تقدم أنه لابد من الايمان بقدر الله السابق وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها وأن الله علم ما سيكون كله قبل أن يكون، كما أنه لابد من الايمان بما شرعه الله فى كتابه وعلى لسان رسوله من أوامر ونواهي ووعد ووعيد وأن ذلك هو النهج الصحيح والسبيل المستقيم، وأنه لا حجة لأحد على الله فى ترك مأمور أو فعل محظور كما روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد فى جنازة. فقال: «ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. فقالوا: يارسول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل. قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ قوله تعالى:

﴿فأمـا من أعطى واتقى وصـدق بالحسنى فسنيسـره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكـذب بالحسنى فسنيسـره للعسـرى﴾ وفي الصحيح أيضا: «أنه قيل له يارسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار. فقال: نعم. فقيل له: ففيم العمل. قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له» قال الشيخ في بيان معنى هذا الحـديث: (فبـين النبي ﷺ أن الله علم أهـل الجنـة من أهل النار وأنه كتب ذلـك ونهـاهم أن يتكلوا على هذا الكتـاب ويـدعـو العمل كما يفعله الملحدون وقال كل ميسر لما خلق له وإن أهل السعادة ميسرون لعمل أهل السعـادة وأهـل الشقـاوة ميسـرون لعمـل أهل الشقاوة وهذا من أحسن ما يكون من البيان وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه وقـد جعـل للأشيـاء أسبـابـا تكون بها فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب كما يعلم أن هذا يولـد له بأن يطأ امـرأة فيحبلهـا، فلو قال هذا إذا علم الله انه يولـد لي فلا حاجـة إلى الـوطء كان أحمق لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الـوطء وكـذلـك إذا علم أن هذا ينبت له زرع بما يسبقه من الماء ويبذره من الحب فلو قال إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر كان جاهلا ضالا لأن الله علم أن سيكون بذلك. وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل وهـذا يروى بالشـرب وهذا يموت بالقتل فلابد من الأسباب التى علم الله أن هذه الأمور تكون بها، وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيداً فى الآخرة وهذا شقيا فى الآخرة، قلنا: ذلك لأنه يعمل بعمل الأشقياء فالله علم أنه يشقى بهذا العمـل فلو قيـل هو شقى وإن لم يعمـل كان باطـلا لأن الله لا يدخل النار أحداً إلا بذنبه كما قال تعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعـين﴾ فأقسم أنـه يملؤها من إبليس وأتباعه ومن اتبع إبليس فقد عصى الله تعالى ولا يعاقب الله العبد على ما علم أنه يعمله حتى يعمله، ولهـذا لما سئـل النبي ﷺ عن أطفـال المشـركـين «قـال الله أعلم بما كانـوا عاملين» يعني أن الله يعلم ما يعملون لو بلغـوا وقـد روي أنهم في القيـامـة يبعث إليهم رسول فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار فيظهر ما علمه فيهم من الطاعة والمعصية، وكذلك الجنة خلقها الله لأهل الايمان به

وطاعته فمن قدر أن يكون منهم : يسره للايمان والطاعة فمن قال إني داخل الجنة سواء كنت مؤمنا أو كافرا إذا علم أني من أهلها كان مفترياً على الله فى ذلك فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالايمان فإذا لم يكن معه إيمان لم يكن هذا هو الذي علم الله أنه يدخل الجنة بل من لم يكن مؤمنا بل كافرا فإن الله يعلم أنه من أهل النار لا من أهل الجنة ، ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب ، ومن قال أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالا على القدر كان مخطئاً أيضاً لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التى ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه ، وإذا قدر للعبد خيرا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء. وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات ، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب فإن الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء فى الفرج بل كم من أنزل ولم يولد له بل لابد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه فى الرحم وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع ، وكذلك أمر الأخرة ليس بمجرد العمل ينال الانسان السعادة بل هو سبب ولهذا قال النبي ﷺ : «إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يارسول الله . قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» أما قوله تعالى : ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ ونحوها من النصوص فهذه (باء) السبب أي بسبب أعمالكم والذي نفاه النبي ﷺ : باء المقابلة كما يقال : اشتريت هذا بهذا فالمعنى ليس العمل عوضاً وثمناً كافياً فى دخول الجنة بل لابد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات ورحمته يأتي بالخيرات وبفضله يضاعف البركات ، وقد سبق آنفا نظير لهذا البحث فيما نقلناه عن الشيخ رحمه الله تعالى ، وحينئذ فالايمان بالقدر أحد دعائم الايمان فمن لم يؤمن بقدر الله لم يوحد الله ، وفي هذا المقام يقول حبر الأمة فيما صح عنه : «القدر نظام التوحيد» يعني قوامه الذي يرتكز عليه ، ولما كان الانسان مضطراً فى دروب سيره إلى الله وفي معاشه وفي حياته إلى نور يضيء له

السبيل «اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها» قال فى شرح الطحاوية : «ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان أحدهما : تعريف الطريق الموصل إليه وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه . والثاني : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم ، ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه ونوراً لتوقف الهداية عليه ، قال تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ وإذا فشرع الله هو الشفاء من كل داء وهو عدله بين عباده الملائم لأحوالهم فى أي زمان وفي أي مكان ، والأمم المتناحرة فى هذه الأزمان والتى لا تخرج من فتنة إلا لتدخل فى مثلها أو تزيد لا نجاة لها من تخبطها وتعثرها إلا بالرجوع إلى نور الله وشرعه وصراطه المستقيم ، يقول الأستاذ محمد قطب فى كتابه جاهلية القرن العشرين : لا مخلص للناس من جاهليتهم وضلالهم وحيرتهم ، وقلقهم واضطرابهم وتمزق حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم إلا بالاسلام ولم يكن للناس مخلص من الجاهلية فى تاريخهم كله إلا بالاسلام بمعناه الواسع الشامل الاسلام الذي جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وقد اكتمل الاسلام في دين الله الأخير ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ وهذا الاسلام فى صورته الأخيرة المكتملة : هو العلاج الوحيد لكل جاهليات الأرض ولهذه الجاهلية الحديثة على وجه التخصيص ، إن الاسلام هو الذي يعطى الوضع الصحيح لكل ما انحرفت به الجاهلية فى التصور والسلوك ، فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فى الأخلاق والفن وعلاقات الجنس وكل شيء فى حياة

الانسان انتهى . ووجه اضطرار الانسان فى حياته الدنيا إلى الشرع ليميز به بين ما يضره وما ينفعه : أن الله قد خلقه وركبه على صورة لا تصلح حياتها وبقائها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، فله تفكير وهمة وقدرة يستطيع بها على العمل وحركته وإرادته يحتاج معهما إلى التوجيه السليم فلا يمكن لأحد من بني آدم أن يعيش عيشة هانئة مستقرة إلا باتباعه لشرع الله الذي يعرفه بمصالحه ، ويحرضه على هدايته ويأخذ بحجزه عن النار ويدله على طريق النجاة ، وليس المعنى أن الشرع إنما يحتاج له المجتمع بشكله العام فى فض منازعات العباد وتنظيم أحوالهم من حيث أنه لابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم ، بل كل فرد محتاج إلى نور الله وهدايته فى تحصيل منافعه ودفع مضاره ، ولا ضاعة السبيل له حتى يفرق بين ما يصلح شأنه وما يفسده من معاملات وعبادات . فالشرع هو الذي يميز له بين الأمرين ، على أن هناك من الأمور التى يحتاج لها الناس في معاشهم ما قد يعرفه الانسان بمقتضى فطرته التى خلق عليها كمعرفته كيف يبذر وكيف يحصد وكيف يلقح ، وكما يعرف الصبي ثدي أمه ويتناول الغذاء منه ، ومنها ما قد يعرف عن طريق التجارب والاستدلال بالأقيسة العقلية على حصول النتائج ومنها ما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي من كتاب أو سنة ، وحينئذ فالانسان بما جبله الله عليه وما ركبه فيه من طبائع محتاج إلى الأخذ بيده إلى ما ينفعه وحجزه عما يضره فانه متحرك مريد وحارث وهمام ، وحديث أصدق الأسماء حارث وهمام أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي وهب الجشمي ولفظه : «تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة» .

قــــوله :

وفي هذا المقــام تكلم النــاس فى أن الأفعـال، هل يعـرف حسنهـا وقبيحها بالعقل، أم ليس فيها حسن ولا قبيح يعرف بالعقل؟ كما بسط فى غير هذا الموضع وبينا ما وقع في هذا الموضع من الاشتباه فإنهم اتفقوا على أن كون الفعل يلائم الفاعل أو ينافره يعلم بالعقل، وهو أن يكون الفعل سببا لما يحبه الفاعل ويلتذ به، أو سبباً لما يبغضه ويؤذيه، وهذا القدر يعلم بالعقـل تارة، وبـالشـرع أخـرى وبهـما جميعـاً لكن معـرفة ذلك على وجه التفصيل، ومعرفة الغاية التي تكون عاقبة الأفعال من السعادة والشقاوة في الـدار الآخـرة ـ لا تعـرف إلا بالشـرع فيـما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمه الناس بعقولهم كما أن ما أخبرت به الرسل من تفاصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم وان كانـوا قد يعلمـون بعقولهم جمل ذلك، وهذا التفصيل الذي يحصل به الايـمان وجـاء به الكتـاب هو ما عليـه قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان؟ ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشـاء من عبـادنـا﴾ وقوله تعالى: ﴿قل ان ضللت فإنما أضل على نفسي وان اهتـديت فبـما يوحي إلي ربي، انـه سميـع قريب﴾ وقـوله تعالى: ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ ولكن طائفة توهمت أن للحسن والقبح معنى غير هذا وانه يعلم بالعقل وقابلتهم طائفة أخرى ظنت ان ما جاء به الشـرع من الحسن والقبـح يخرج عن هذا فكـلا الطـائفتـين اللتـين أثبتتـا الحسن والقبح العقليين أو الشرعيين وأخرجتاه عن هذا القسم غلطت.

ش : يعني وفى باب قدر الله وأمره ونهيه تنازع الناس من أهل السنة والجـماعـة، من أهـل المـذاهب الأربعة وغيرهم، فالحنفية وبعض المالكية والشـافعيـة والحنبليـة، يقـولـون بتحسـين العقـل وتقبيحه. فالأفعال فيها الحسن والقبيـح ويعـرف ذلـك بالعقـل عند هؤلاء، أما كثير من الشافعية والمـالكيـة والحنبليـة فينفـون ذلـك، فالأفعال ليس فيها حسن ولا قبيح ولا

يمكن معـرفـة ذلك بالعقل عند هؤلاء. وقد أشبع الشيخ رحمه الله البحث فى هذه المسألـة فى كثـير من كتبـه، وبـين هنـاك ما وقع فى مسألة التحسين والتقبيـح من الخفـاء والاشتبـاه ومـا وقع فيها من الغلط والنزاع. وقد اتفق الفريقان على أن الحسن والقبح إذا فسرا يكون الفعل نافعا للفاعل ملائما له أو كونـه ضاراً للفـاعل منافراً له أمكن معرفته بالعقل وهذا حق فإن جميع الأفعال التى أوجبها الله تعالى وندب إليها هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم وجميع الأفعال التى نهى الله عنها هي ضارة لفاعليها ومفسدة لهم، والحمد والثـواب المـترتب على طاعـة الشـارع نافـع للفـاعـل ومصلحـة له والذم والعقـاب المـترتب على معصيتـه ضار للفاعل ومفسدة له فالله تعالى عليم حكيم، علم بما تتضمنه الأحكام، من المصالح فأمر ونهى لعلمه بما فى الأمر والنهي والمأمـور والمحـذور من مصـالـح العبـاد ومفاسدهم، وحينئذ فكون الفعـل سببـا لما يحبـه الفـاعل ويلتذ به أو سببا لما يبغضه ويؤذيه، يعلم تارة بالعقـل وتـارة بالشـرع وقد يعلم بالشرع والعقل جميعا، لكن معرفة الملائم والمنـافـر على وجه التفصل ومعرفة النهاية التي هي نتيجة وثمرة الأفعال من نعيم أو عذاب على وجه التفصيل ومعرفة تفصيل ما شرعه من الشرائع وما أخبر به من حقائق الآخرة وحقائق أسمائه وصفاته معرفة ذلك بالتفصيل لا تمكن إلا عن طريق النصـوص وان كان النـاس قد يعـرفـون ذلـك بعقولهم بصفة اجمالية، وهذا التفصيل الذي يحصل به الايمان بما أخبر الله به وورد به النص هو ما عنت آيـة الشـورى وآيـة سبأ وآيـة الأنبيـاء وأمثـالهن من النصـوص. لكن المعتـزلـة وأتباعهم أثبتوا حسنا وقبحا لا يعود إلى الفاعل منـه حكم يقـوم بذاتـه، إذ عندهم لا يقوم بذاته لا وصف ولا فعل بمعنى أنهم يقولون بالتحسين والتقبيح ويجعلون ذلك صفات ذاتية للفعل لازمة له ولا يجعلون الشـرع إلا كاشفـاً عن تلك الصفـات لا سببـا لشيء منهـا، والأشـاعـرة وأتباعهم يقولون ان الأفعال لم تشتمل على صفات هي أحكام ولا على صفـات هي علل للأحكـام، بل القـادر أمـر بأحد المتماثلين دون

الآخـر لمحض الارادة لا لحكمـة ولا لرعـايـة مصلحـة فى الخلق والأمـر، ويقـولـون انـه يجوز أن يأمـر بالشـرك وينهى عن عبادته وحده ويجوز أن يأمر بالظلم والفواحش وينهى عن البر والتقوى، وليس المعروف فى نفسه معروفا ولا المنكر فى نفسه منكراً عندهم، بل إذا قال: «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث» فإنما يعبر عن ذلك بما يلائم الطبـائـع وذلك لا يقتضي عندهم كون الرب يحب المعروف ويبغض المنكـر، فهـذا القـول ولـوازمه باطل مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والفقهـاء مع مخالفتـه أيضـا للمعقـول الصـريـح، فإن الله نزه نفسـه عن الفحشاء فقال: ﴿قل ان الله لا يأمر بالفحشاء﴾ كما نزه نفسه عن التسوية بين الخـير والشـر فقال: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالـذين آمنـوا وعملوا الصـالحـات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ وقـال سبحـانـه: ﴿أفنجعـل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾ وقـال تعـالى: ﴿أفنجعـل الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعـل المتقـين كالفجـار﴾ وعلى قولهم: لا فرق فى التسوية بين هؤلاء وهؤلاء وبين تفضيل بعضهم على بعض، وليس تنزيهه عن أحدهما بأولى من تـنـزيهـه عن الآخـر، والحـاصـل أن المعتـزلـة وأتباعهم زعموا أن الحسن والقبـح لا يكـون إلا لما هو متصف بذلـك بدون أمـر الشـارع، والأشعرية ونحوهم ادعوا أن جميع الشريعة من قسم الامتحان وأن الأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع ولا بالشرع، وهذا معنى قول المؤلف (ولكن طائفـة توهمت أن للحسن والقبـح معنى غير هذا وأنـه يعلم بالعقـل، وقـابلتهم طائفـة أخرى ظنت أن ما جاء به الشرع من الحسن والقبح يخرج عن هذا فكـلا الطـائفتـين اللتين أثبتتا الحسن والقبح العقليين أو الشرعيين وأخـرجتـاه عن هذا القسم غلطت) فالطـائفـة الأولى هي المعتـزلـة ومن تبعهم، والطـائفـة الثـانيـة هي الأشـاعرة ومن تبعهم والأولى تفسر الحسن القبـح بغـير معنى المـلائم والمنـافـر وتعتقـد أن ذلك إنما يثبت بالعقل دون الشـرع، والثـانيـة نفت الحسن والقبح العقليـين وأثبتت الحسن والقبـح

الشرعيين وفسرته بغير الملائم والمنافر.

قــــــوله :

ثم ان كلتـا الطـائفتـين لما كانت تنكر أن يوصف الله بالمحبة والرضا والسخـط والفـرح ، ونحـو ذلـك ، مما جاءت به النصوص الالهية ، ودلت عليـه الشـواهـد العقلية تنازعوا بعد اتفاقهم على أن الله لا يفعل ما هو منه قبيـح ، هل ذلـك ممتنـع لذاته ، وانه لا يتصور قدرته على ما هو قبيح أو أنه سبحـانـه منـزه عن ذلـك ، لا يفعله لمجرد القبح العقلي الذي أثبتوه؟ على قولين والقولان في الانحراف من جنس القولين المتقدمين ، أولئك لم يفرقوا في خلقه وأمره بين الهدى والضلال ، والطاعة والمعصية والأبرار والفجار ، وأهل الجنة وأهل النار ، والرحمة والعذاب ، فلا جعلوه محموداً على ما فعله من العـذاب أو ما تركـه من الظلم ولا ما فعله من الاحسـان والنعمة ، وما تركـه من التعـذيب والنقمة والآخرون نزهوه بناء على القبح العقلي الذي أثبتـوه ، ولا حقيقـة له وسـووه بخلقـه فيما يحسن ويقبح وشبهوه بعباده فيما يأمر به وينهى عنه .

ش : يعني أن المعتزلة وأتباعهم ، والأشاعرة وأتباعهم بناء على قول الطـائفـة الأولى أن الله فعـل المفعـولات وأمـر بالمأمورات لحكمة تعود إلى الخلق من غير أن يعـود إليـه من ذلـك حكم أويقوم به فعل أو نعت ، وقول الطـائفـة الثانية إن الله خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعله ولا داع ولا باعث بل فعـل ذلـك لمحض المشيئة وصرف الارادة وبناء على نفيهم صفة المحبـة والبغض والغضب والـرضـاء والسخـط والفـرح ونحـو ذلـك من الصفات التي ينفيها كل من الطائفتين مما دل عليه نصوص الكتاب والسنة وشهـدت به الـبراهين العقلية ، بناء على كل ما سبق تنازعوا في عدم وقوع الظلم من الله ، هل ذلـك ممتنـع لذاتـه وليس ممكنـا ولا مقدوراً أم أنه ممتنع على الله لمجـرد القبـح العقـلي فقـط؟ وكل من هذين القولين باطل وهما فى

البطلان كالقولين الماضيين لهاتين الطائفتين في الحسن والقبح، مع أنهم جميعا متفقون على أن الله لا يفعل ما هو قبيح، والأشاعرة وأتباعهم بناء على نفيهم حكمة الله فى خلقه وأمره، لم يفرقوا بين ما شاء وبين ما أمر به، بمعنى أنهم لم يميزوا بين ما هو هدى تترتب عليه السعادة ويمدح فاعله ويكون صاحبه من المؤمنين الأبرار، وبين ما هو ضلال يترتب عليه الشقاء، ويكون صاحبه من الكفار أو الفجار، وبناء على قولهم إن الظلم ممتنع على الله وأنه لا يتصور قدرته عليه جعلوا الله غير محمود على ما فعله من الاحسان والرحمة وغير محمود على ما تركه من العقاب والنقمة، وهذا عين قول الجبرية، ولا ريب فى شناعة هذا القول وبطلانه فإن الله تعالى هو الذي يعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل ويغني ويفقر ويضل ويهدي ويسعد ويشقي، وهو سبحانه حكم عدل لا يضع الشيء إلا فى موضعه الذي يناسبه ويقتضيه العدل والمصلحة وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلين ولا يساوي بين مختلفين فلا يعاقب إلا من يستحق العقوبة فيضعها موضعها لما فى ذلك من الحكمة ولا يعاقب أهل البر والتقوى، أما المعتزلة ومن تبعهم فلم يثبتوا حكمة تعود إلى الله فيما خلقه وأمر به وإنما أثبتوا حكمة تعود إلى المخلوق فقط، ولم يثبتوا الحسن والقبح بالمعنى الذي يثبته الشرع ويشهد به العقل بل قاسوه على خلقه فيما يحسن ويقبح وجعلوا يوجبون على الله سبحانه ما يوجبون على العبد ويحرمون عليه من جنس ما يحرمون على العبد ويسمون ذلك العدل والحكمة مع قصور عقلهم عن معرفة حكمته وعدله، والحاصل: أنهم قاسوا الله على خلقه بقولهم ما حسن من المخلوق حسن من الخالق وما قبح من المخلوق قبح من الخالق فهم مشبهة الأفعال وهذا باطل كما أن تمثيل الخالق بالمخلوق فى الصفات باطل. وقوله: «والآخرون نزهوه بناء على القبح العقلي الذي أثبتوه ولا حقيقة له» يعني أن المعتزلة تقول الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة، والله منزه عن فعل القبائح فلا تكون فعلا له، قالوا ولا يمكن إثبات كونه

سبحانه عدلا لا يظلم ، إلا بالقول بانه لم يرد وجود الكفر والفسوق والعصيان ولا شاءها بل العباد فعلوا ذلك بغير مشيئته وإرادته ، كما فعلوه بغير إذنه وأمره وقد رد عليهم سلف الأمة وأئمة السنة بأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأن العباد لهم مشيئة وقدرة فيفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ، كما قال تعالى : ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ الآية وقال تعالى : ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء أتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما﴾ وقال : ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ فكل شيء واقع بقدرته ومشيئته ولا يكون فى ملكه ما لا يريد ، وهو سبحانه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحب إلا ما تعلق بالارادة الدينية المتضمنة لرضاه وقد يريد ما يبغضه ويأباه إرادة كونية تتعلق بها قدره وقضاه وله فى جميع خلقه حكمة بالغة ، قال الشيخ رحمه الله الحكمة تتضمن شيئين أحدهما : تعود إليه سبحانه يحبها ويرضاها . الثانى : إلى عباده هي نعمة عليهم يفرحون بها ويتلذذون بها وهذا فى المأمورات وفى المخلوقات أما فى المأمورات فانه يحب الطاعة ويرضاها ويفرح بتوبة التائب أعظم فرحا فهو يفرح أعظم مما يفرح الفاقد لزاده وراحلته فى الأرض المهلكة إذا وجدها بعد اليأس . كما أنه يغار أعظم من غيرة العباد وغيرته أن يأتي العبد ما حرم عليه فهو يغار إذا فعل العبد ما نهاه ويفرح إذا تاب ورجع إلى ما أمر به ، والطاعة عاقبتها سعادة الدنيا والآخرة وذلك مما يفرح به العبد المطيع فكان فيما أمر الله به من الطاعات عاقبة حميدة تعود إليه وإلى عباده ، ففيها حكمة له ورحمة لعباده قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب﴾ ففي الجهاد عاقبة محمودة للناس فى الدنيا

يحبونها وهي النصر والفتح وفى الآخرة الجنة وفيه النجاة من النار. وقال تعالى فى أول السورة: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ ففيه حكمة عائدة إلى الله تعالى وفيه رحمة للعباد وهي ما يصل إليهم من النعمة فى الدنيا والآخرة وهكذا سائر ما أمر به، وكذلك ما خلقه سبحانه خلقه لحكمة تعود إليه يحبها، وخلقه لرحمة بالعباد ينتفعون بها» ثم قال رحمه الله ومذهب أهل السنة والجماعة ان الله خالق كل شيء وربه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله منهي عن معصية الله ومعصية رسوله فإن أطاع كان ذلك نعمة وإن عصى كان مستحقا للذم والعقاب وكان لله عليه الحجة البالغة ولا حجة لأحد على الله تعالى وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته لكن يحب الطاعة ويأمر بها ويثيب أهلها ويكرمهم ويبغض المعصية وينهى عنها ويعاقب أهلها ويهينهم، وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم بها عليه وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه كما قال تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم به عليك وما أصابك من حزن وذل وشر فبذنوبك وخطاياك، فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابها للمشركين، ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشبها للمجوسيين ومن آمن بهذا وبهذا، فاذا أحسن حمد الله تعالى وإذا أساء استغفر الله تعالى وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره فهو من المؤمنين، فإن آدم عليه السلام لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصر واحتج فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدميا، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيا. فالسعداء يتبعون أباهم والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس» واعلم أن الظلم الذي تنزه الله عنه هو المذكور في مثل قوله سبحانه: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾ أي لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه من سيئات غيره ولا يهضم من

حسناته، وفي مثل قوله تعالى: ﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾ وقول النبي ﷺ فى حديث «البطاقة» الذي رواه الامام أحمد والترمذي وغيرهما «يجاء برجل من أمتي يوم القيامة فتنشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيقال هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول لا يارب فيقال ألك عذر ألك حسنة؟ فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم قال فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله فتوضع البطاقة فى كفه والسجلات فى كفه قال ﷺ فطاشت السجلات وثقلت البطاقة».

قوله :

فمن نظر إلى القدر فقط وعظم الفناء فى توحيد الربوبية، ووقف عند الحقيقة الكونية، لم يميز بين العلم والجهل والصدق والكذب والبر والفجور، والعدل والظلم والطاعة والمعصية والهدى والضلال والرشاد والغى، وأولياء الله وأعدائه وأهل الجنة والنار وهؤلاء مع أنهم مخالفون بالضرورة لكتاب الله ودينه وشرائعه، فهم مخالفون أيضاً لضرورة الحس والذوق وضرورة العقل والقياس، فان أحدهم لابد أن يلتذ بشيء فيميز بين ما يأكل ويشرب وما لا يأكل ولا يشرب، وبين ما يؤذيه من الحر والبرد، وما ليس كذلك وهذا التمييز بين ما ينفعه ويضره، هو الحقيقة الشرعية الدينية، ومن ظن أن البشر ينتهي إلى حد يستوى عنده الأمران دائما، فقد افترى وخالف ضرورة الحس ولكن قد يعرض للانسان في بعض الأوقات عارض كالسكر والاغماء ونحو ذلك مما يشغله عن الإحساس ببعض الأمور فأما أن يسقط أحساسه بالكلية مع وجود الحياة فيه فهذا ممتنع فإن النائم لم يفقد إحساس نفسه بل يرى في منامه ما يسؤه تارة، وما يسره أخرى فالأحوال التي يعبر عنها بالاصطلام ـ كالفناء والسكر ونحو ذلك ـ إنما تنشأ عن عدم الأحساس ببعض الأشياء دون بعض، فهي مع نقص صاحبها لضعف ـ تمييزه لا تنتهي إلى حد يسقط فيه

التمييز مطلقا، ومن نفى التمييز فى هذا المقام مطلقاً، وعظم هذا المقام فقد غلط في الحقيقة الكونية والدينية قدراً وشرعاً، وغلط في خلق الله وفي أمره. حيث ظن وجود هذا، ولا وجود له، وحيث ظن أنه ممدوح ولا مدح في عدم التمييز وفقدان العقل والمعرفة.

ش : يقول الشيخ ان من احتج بالقدر وشاهد الربوبية العامة فقط لم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكافرين وأهل الطاعة وأهل المعصية ولم يفرق بين النبي الصادق والمتنبىء الكاذب وأولياء الله وأعدائه وهكذا سائر الأضداد بل يشهدون وجه الجمع من جهة كون الكل بقضاء الله وقدره وإرادته العامة ولا ريب أن الله تعالى خالق كل شيء ومليكه، والقدر هو قدرة الله وهو المقدر لكل ما هو كائن، لكن هذا لا ينفي حقيقة الأمر والنهي والوعد والوعيد، وأن من الأفعال ما ينفع صاحبه فيحصل له به نعيم ومنها ما يضر صاحبه فيحصل له به عذاب، والجميع سواء من جهة المشيئة والربوبية، لكن هناك فرقاً آخر من جهة الحكمة والأوامر الالهية ونهاية الأمور، وحينئذ فالانسان لابد أن يجوع ويعطش فلا يسوي بين الخبز والشراب وبين الملح الأجاج والعذب الفرات، بل لابد أن يفرق بينهما ويقول هذا طيب وهذا ليس بطيب، فمن الأمور ما هو ملائم للانسان نافع له يحصل له به اللذة ومنها ما هو مضاد له ضار يحصل له به الألم وهذا الفرق معلوم بالحس والعقل والشرع، مجمع عليه بين الأولين والآخرين فما دام الانسان حياً فلابد أن يفرق بين ما ينفعه وينعمه ويسره وبين ما يضره ويشقيه ويؤلمه وهذا حقيقة الأمر والنهي فإن الله تعالى أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، فقد بعث الرسل بتكميل الفطرة فأرشدوا الخلق إلى ما ينالون به النعيم فى الآخرة وينجون به من العذاب، ومن لم يدرك هذا الفرق فان كان لسبب أزال عقله، هو به معذور، وإلا كان مطالباً بما فعله من الشر وما تركه من الخير، وإذاً فهذا الصنف من الناس مع مخالفتهم ما هو معلوم بالضرورة من الدين فهم مخالفون لما هو معلوم بالضرورة من

الحس والعقل، وكونه يفرق بين النافع والضار معناه أنه يستطيع التمييز بين أمـر الله وخلقـه فان الشـرع قد فصـل له ما ينفعـه وما يضره، ومن زعم أن أحـداً من النـاس يصـل به الأمر إلى درجة لا يميز فيها بين هذه المتضادات فقد ضل وافترى، وان كان الانسان قد يأتي عليه أحيانا ما يجعله فى حالة يضعف فيهـا تمييـزه ويقـل فيهـا إدراكـه ووعيـه، كحالة السكران والمغمى عليـه، هذا شيء مسلم به ولكن مع ذلـك فإن إحسـاسه لا يذهب كله بل يبقى معـه شيء من شعـوره وإدراكه، فأما أن يذهب تمييزه نهائياً فهذا غير صحيـح، وقـولـه: ونحـو ذلـك يعني كحالة النائم فإن النائم مع أنه أعظم نقصاً من حالة السكران والمغمى عليه فإنه لا يذهب إحساسه كله بل يدرك ويشعر بأمور يراها في نومه مما قد يسؤوه أو يسره، فالأحوال التى تعبر عنها الصـوفيـة بالاصطـلام إنـما تنشأ من عدم إحساس أصحابها ببعض الأمور ولكنها مع نقصٍ حالة أصحابها فهي لا تصل إلى حالة يسقط معها التمييز سقـوطـاً كامـلاً، ومن ادعى سقـوط التمييـز سقـوطـا تامـا وعظم الفناء في مشـاهـدة الـربـوبية فقد غلط غلطاً شنيعاً وقصر فى أمر الله وشرعه تقصيراً يخرجـه إلى كفـر أعظم منـه في اليهـود والنصـارى، فإن هؤلاء مع كفرهم يقـرون بنـوع من الأمـر والنهي والـوعـد والـوعيد، بخلاف هؤلاء المباحية المسقطة للشرائع مطلقا، فانهم يقولون إن العارف إذا صار فى هذا المقام لا يستحسن حسنـه ولا يستقبـح سيئـه، لشهـوده الـربـوبيـة العامة والقيومية الشاملة، وحينئذ فمن ادعى سقوط التمييز سقوطاً تاماً فقد غلط غلطاً بينا فى تفريقه بين خلق الله وأمره وفي اعتقاده أن عمله هذا ممدوح فانه لا وجود لهذا ولا مدح فى عدم العلم وسقـوط المعـرفـة، وهـذا حال المتأخـرين من الصـوفيـة. قال الشيـخ: (وأمـا أئمـة الصـوفية، والمشايخ المشهورون من القدماء: مثل الجنيد بن محمد وأتباعه، والشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي، وتوصية بذلك وتحذيراً من المشي مع القـدر، فالشيـخ عبـد القـادر كلامـه كله يدور على اتبـاع المأمـور وتـرك المحذور، والصبر على المقدور، ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك أصلاً، لا هو

ولا عامة المشائخ المقبولين عند المسلمين، وكان يحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي، كما أصاب أولئك الصوفية الذين شهدوا القدر وتوحيد الربوبية، وغابوا عن الفرق الالهي الديني الشرعي المحمدي. الذي يفرق بين محبوب الحق ومكروهه) والأحوال هي أعمال القلوب التى تسميها الصوفية مقامات أومنازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين، وفيها ما هو من الايمان وفيها ما هو من وحي الشيطان، والذوق: هومباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة للملائم والمنافر، قال ابن القيم: «ولا يختص ذلك بحاسة الفم فى لغة القرآن بل ولا فى لغة العرب» قال الله تعالى: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ وقال: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وقال: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ وفى الصحيح عن النبي ﷺ: «ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا، وبالاسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا» فأخبر أن للايمان طعما وأن القلب يذوقه كما يذوق طعم الطعام والشراب «والاصطلام: هوشهود القيومية العامة والفناء فى شهود توحيد الربوبية» وقوله: بل يرى فى منامه ما يسؤوه تارة وما يسره أخرى، معناه أن الانسان الحي غير فاقد للاحساس فقداناً تاماً حتى حالة غيبوبته عما حوله من المحسوسات فانه أحياناً يشاهد وهو نائم ما يزعجه ويؤلمه وهي المرائى السيئة وأحياناً يشاهد ما يسره ويفرح به قلبه وهي المرائى الصالحة، روى مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال لأعرابي جاءه فقال: «إني حلمت أن رأسي قطع، فأنا اتبعه. فزجره النبي، وقال: لا تخبر بتلاعب الشيطان بك فى المنام» وفى رواية: «أن أعرابياً قال: يارسول الله، رأيت فى المنام: كان رأسي ضرب، فتدحرج، فاشتددت فى أثره فقال رسول الله ﷺ: لا تحدث بتلاعب الشيطان بك فى منامك، وقال: سمعت رسول الله ﷺ بعد يخطب، فقال: لا يحدثن أحدكم بتلاعب الشيطان به فى منامه» زاد فى رواية «فضحك النبي ﷺ» وروى مسلم وأبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت الليلة وفى رواية رأيت

ذات ليلة فيما يرى النائم، كأنا فى دار عقبة بن رافع، وأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت: أن الرفعة لنا فى الدنيا، والعاقبة فى الآخرة، وأن ديننا قد طاب» وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤ يا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه. فليبصق عن يساره، وليستعذ بالله منه، فلن يضره» وفى رواية قال أبو سلمة: «إن كنت لأرى الرؤ يا تمرضنى، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: الرؤ يا الصالحة من الله، والرؤ يا السوء من الشيطان، فإذا رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا، وليتعوذ بالله من الشيطان، وشرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره» هذه رواية البخاري ومسلم وأخرجه فى الموطأ وزاد بعد قوله: «لن تضره إن شاء الله» قال أبو سلمة: «إن كنت لأرى الرؤ يا. هي أثقل علي من الجبل فلما سمعت هذا الحديث فما كنت أباليها» وعن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال إذا رأى أحدكم الرؤ يا يحبها. فانها من الله فليحمد الله عليها: وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليتسعذ بالله من شرها، ولا يذكرها لأحد فانها لن تضره» أخرجه البخاري والترمذي.

قوله:

وإذا سمعت بعض الصوفية يقول أريد أن لا أريد أو أن العارف لا حظ له وأنه يصير كالميت بين يدي الغاسل ونحو ذلك فهذا إنما يمدح منه سقوط إرادته التى لم يؤمر بها، وعدم حظه الذي لم يؤمر بطلبه. وأنه كالميت فى طلب ما لم يؤمر بطلبه وترك دفع ما لم يؤمر بدفعه ومن أراد بذلك، أنه تبطل إرادته بالكلية، وأنه لا يحس باللذات والألم، والنافع والضار، فهذا مكابر مخالف لضرورة الحس والعقل ومن مدح هذا فهو مخالف لضرورة الدين والعقل.

ش : يقول المؤلف إذا بلغك أن بعض مشائخ الصوفية يعبر بقوله أريد أن لا أريد كقول أبي يزيد الصوفي : أو إن العارف ليس له من نفسه أمر ونحو ذلك من العبارات وذلك كقول الشيخ عبد القادر «علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط فلا يكن لك غرض ولا تقف لك حاجة ولا مرام لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها» إذا سمعت هذه العبارات المروية عن بعض فضلاء الصوفية فاعلم أن مقصودهم أن لا يريد المريد شيئاً إلا أن يكون مأموراً بإرادته ، فقوله (علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط) معناه أنك لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته فأما ما أمر الله ورسوله بإرادتك إياه فإرادته إما واجب وإما مستحب وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص . وهكذا قولهم «ينبغي أن يكون الانسان كالميت بين يدي الغاسل» ليس معناه أن لا تكون له إرادة أصلا وهذا معنى قول المؤلف «فهذا إنما يمدح منه سقوط إرادته التى لم يؤمر بها : وعدم حظه الذي لم يؤمر بطلبه وأنه كالميت فى طلب ما لم يؤمر بطلبه وترك دفع ما لم يؤمر بدفعه» وحينئذ فلا يجوز حمل كلام المشائخ المستقيمين ، على ترك الارادة مطلقا فان هذا غلط فاحش ، وذلك أن الحي لابد له من إرادة ، فان الارادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر ايجاب وأمر استحباب لا يدعها إلا كافر أو عاصي إن كانت واجبة . وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له ، والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه الارادة فقال تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه﴾ وقال تعالى : ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ وقال تعالى : ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما﴾ وحينئذ فالله يأمر بارادته وإرادة ما يأمر به وينهى عن إرادة غيره وإرادة ما نهى عنه ، فهما إرادتان إرادة يحبها الله ويرضاها وإرادة لا يحبها الله ولا يرضاها ، وأما من اعتقد أنهم فرغوا من الارادة مطلقا ولم يبق لهم مراد وأن هذا المقام هو أكمل المقامات وأن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة القدرية الكونية من اعتقد هذا الاعتقاد أو نسبه

للشيوخ الفضلاء فقد ضل ضلالا مبينا، وإذاً فالذين يغلطون ويظنون أن الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التى تتضمن مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهراً وباطنا هؤلاء بالاضافة إلى مخالفتهم لما شرع الله فهم مخالفون أيضا للحس والعقل، فإن الجائع يفرق بين الخبز والشراب والعطشان يفرق بين الماء والسراب فيحب ما يشبعه ويرويه دون ما لا ينفعه، ومن اعتقد هذا الاعتقاد أومدح هذا الطريق فهو مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول، فقد ذم الله من حرم ما لم يحرمه أوشرع ما لم يشرعه فى كتابه أوعلى لسان رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ـ قل أمر ربي بالقسط﴾ وقال سبحانه: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ والنسبة فى الصوفية إلى الصوف لأنه غالب لباس الزهاد وقد قيل هو نسبة إلى (صوفة بن مراد) قبيلة من العرب كانوا يجاورون حول البيت وأما من قال هو نسبة إلى الصفة فقد قيل كان حقه أن يقال صفيه وكذلك من قال نسبه إلى الصفا قيل له كان حقه أن يقال صفائية، ولوكان مقصوراً لقيل صفوية ومن قال نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله، قيل له: كان حقه أن يقال: صفية، ولا ريب أن هذا يوجب النسبة والاضافة، إذا أعطى الاسم حقه من العربية قال الشيخ: (وقد تكلم بهذا الاسم قوم من الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره وقد تكلم به أبوسليمان الداراني وغيره، وأما الشافعي فالمنقول عنه ذم الصوفية وقد ذم طريقهم طائفة من أهل العلم من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة وقد مدحه آخرون، والتحقيق فيه أنه مشتمل على الممدوح والمذموم كغيره من الطرق وأن المذموم منه قد يكون اجتهاديا وقد لا يكون، وأنهم فى ذلك بمنزلة الفقهاء فى الرأي فانه قد ذم الرأي من العلماء طوائف كثيرة وفي المتسمين بذلك من أولياء الله وصفوته وخيار عباده ما لا يحصى عدده إلا الله) وقد سبقت الاشارة إلى

ذلك في المثل الأول عند قول الشيخ: (وقد يدخل في المتسبين إلى التصوف والسلوك من يدخل في بعض هذه المذاهب).

قــــوله :

والفناء يراد به ثلاثة أمور أحدها: الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب وهو أن يفنى عما لم يأمره الله به بفعل ما أمره الله به فيفنى عن عبادة غير الله بعبادته وعن طاعة غير الله بطاعته وطاعة رسوله. وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه، وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله، وعن خوف غيره بخوفه بحيث لا يتبع العبد هواه بغير هدى من الله وبحيث يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما قال تعالى: ﴿قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ فهذا كله مما أمر الله به ورسوله.

وأما الفناء الثاني: وهو الذي يذكره بعض الصوفية فهو ان يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى، فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته بحيث يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين وليس هو من لوازم طريق الله ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي ﷺ ولا السابقين الأولين ومن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالاً مبيناً وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطىء خطأ فاحشاً بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك.

وأما الثالث: فهو الفناء عن وجود السوى بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق وان الوجود فيهما واحد بالعين» فهذا قول أهل الالحاد والاتحاد الذين هم أضل العباد.

ش : الفناء مصدر فني يفنى فناء إذا اضمحل وتلاشى وعدم ، وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه مع بقاء عينه كما قال الفقهاء لا يقتل فى المعركة شيخ فان. وقال تعالى : ﴿كل من عليها فان﴾ أي هالك ذاهب ، وأما معناه في كلام الصوفية فيراد به ثلاثة أمور الفناء عن إرادة السوى ، والفناء عن شهود السوى والفناء عن وجود السوى ، وقد بين المؤلف ، الأول بقوله : (أحدها الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وهو أن يفنى عن ما لم يأمره الله به بفعل ما أمره الله به) ومعنى هذا أن القلب يفنى عن إرادة ما سوى الرب وهو في الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته وتألهه وانابته وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له ، وليس لأحد خروج عن هذا وهو ترجمة قول لا إله إلا الله وقول النبي ﷺ لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وبهذا الفناء يكون العبد غير متبع هواه بغير هدى من الله بل يكون على هدى مستقيم ، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما يوضح ذلك آية براءة وحديث أنس الذي رواه البخاري ومسلم : «قال قال رسول الله ﷺ ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه» وهذا فى الجملة هو أول الدين وآخره وهو حقيقة الاخلاص وليس لأحد خروج عنه. وبين الثاني بقوله : (فهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله بحيث يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى) يعني أن الواحد منهم يغيب عن سوى مشهوده فيغيب حتى عن نفسه وشهودها لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبموجوده عن وجوده وبمحبوبه عن حبه ، وهذا الفناء هو الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ويعدونه الغاية ، وهو الذي بنى عليه أبوإسماعيل الأنصاري كتابه منازل السائرين وجعله الدرجة الثالثة في كل باب من أبوابه ، وليس مراد القوم فناء وجود ما سوى الله فى الخارج بل مرادهم فناؤه عن شهودهم وحسهم ، وقد يغلب شهود القلب لمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به فيظن أنه أتحد به

وامتزج بل يظن أنه هو نفسه كما يحكى أن محبوبا وقع في اليم فألقى المحب نفسه خلفه فقال أنا وقعت فأنت مالذي أوقعك فقال غبت بك عني فظننت أنـك أني ، وصـاحب هذا الحـال إذا عاد إليـه عقله يعلم أنـه كان غالطا فى ذلـك وأن الحقـائق متميـزة فى ذاتهـا ، فالرب رب والعبد عبد والخالق خالق بائن عن المخلوقـات ليس في مخلوقـاتـه شيء من ذاتـه ولا فى ذاته شيء من مخلوقـاتـه ، ولا شك أن شهـود العبـد قيـامه بالعبودية أكمل في العبودية من غيبته عن ذلك ، فان أداء العبودية فى حال غيبة العبد عنها وعن نفسه بمنزلة أداء السكران والنائم . وأداؤ ها في حال كما يقظته وشعوره بتفاصيلها وقيامه بها أتم وأكمـل وأقـوى عبـوديـة ، قال ابن القيم : «فتأمـل حال عبـدين فى خدمة سيدهما أحدهما يؤدي حقوق خدمته ، فى حال غيبته عن نفسه وعن خدمتـه لاستغـراقـه بمشـاهـدة سيـده والآخر يؤديها فى حال كمال حضوره وتمييـزه واشعـار نفسـه بخدمة السيد وابتهاجها بذلك فرحاً بخدمته وسروراً والتذاذاً منه واستحضاراً لتفاصيل الخدمة ومنازلها وهو مع ذلك عامل على مراد سيده منه لا على مراده من سيده فأي العبدين أكمل» ولاشك أن هذا حال ناقص يحصـل أحيـانـاً لبعض السـائـرين إلى الله وليس هذا الحـال النـاقص من مقتضيـات سلوك الـدرب المـوصـل إلى الله بل ذلـك عارض يعرض لبعض الناس فيكون به أدنى مرتبة من غيره (فان هذا لم يكن للنبي ﷺ ولا حالا من أحواله ، ولهذا فى ليلة المعراج لما أسرى به وعاين ما عاين مما أراه الله إياه من آياته الكبر ى لم تعرض له هذه الحال بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله تعالى : ﴿ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكـبر ى﴾ وكـذلـك الصحابة رضي الله عنهم وهم سادات العارفين وأئمة الواصلين المقربين وقدوة السالكين لم يكن منهم من ابتلى بذلك ولا شم له رائحة ولم يخطر على قلبه فلو كان هذا الفناء كمالا لكانوا هم أحق به وأهله وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم) وحينئذ فهذا الفناء هو كما قال الشيخ : «هو من عوارض طريق الله التى تعـرض لبعض النـاس دون بعض فيكـون من جعله نهايـة السـالكـين ضالا ضلالا مبينا كما أن من جعله من لوازم طريق

الله فهو مخطىء خطأ فاحشا، وإذا فأولى الناس بالله وكتبه ورسله ودينه هم المـؤمنـون بالحقيقة الدينية والكونية المعطون كل حقيقة حظها من العبادة. والسلوك سلوكـان: سلوك الأبـرار أهـل اليمـين وهـو أداء الـواجبات وترك المحـرمـات باطنـا وظـاهـرا. والثـاني: سلوك المقـربـين السابقين وهو فعل الـواجب والمستحب بحسب الامكـان وتـرك المكـروه والمحرم كما قال النبي ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبـوه وإذا أمـرتكم بأمـر فأتـوا منـه ما استطعتم» وكلام الشيوخ الكبار، كالشيخ عبد القادر وغيره يشير إلى هذا السلوك، ولهـذا يأمـرون بما هو مستحب غير واجب وينهـون عما هو مكروه غير محرم، وطريق الخاصة طريق المقربين أن لا يفعل العبد إلا ما أمر به ولا يريـد إلا ما أمـر الله ورسوله بارادته، وهو ما يحبه الله ويرضاه. وبين الثالث بقوله: (هو الفناء عن وجود السوى بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجـود الخـالق وأن الـوجـود فيهـما واحـد بالعين) يعني أن الملاحدة القائلين بوحـدة الـوجـود وأنـه ما ثم غير، وأن غايـة العـارفـين والسالكين الفناء فى الوحدة المطلقة ونفي التكثر والتعدد، لا يفرقون بين كون وجود المخلوقات بالله وبين كون وجودها هو عين وجوده فليس عندهم فرقا بين العالمين ورب العـالمـين، وإذا فهؤلاء الزنادقة يجعلونه عين الموجودات وحقيقة الموجودات وأنـه لا وجـود لغـيره، لا بمعنى أن قيـام الأشياء ووجودها به كما قال النبي ﷺ: «أصـدق كلمـة قالهـا الشـاعـر كلمـة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فانهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح، لكنهم يريدون أنه عين الموجودات وهذا كفر وضلال، وقد سبق بيان هذا فى الكلام على القـاعـدة الخـامسـة عند قول المؤلف: حتى آل الأمر بمن يدعي التحقيق والتوحيد والعرفان منهم. إلى أن أشتبه عليهم وجود الرب بوجود كل موجود».

قــــــوله :

وأمـا مخالفتهم لضـرورة العقل والقياس ، فان الواحد من هؤلاء لا يمكنـه أن يطـرد قولـه فانـه إذا كان مشاهداً للقدر من غير تمييز بين المأمور والمحظـور فعـومل بموجب ذلك مثل ان يضرب ويجاع حتى يبتلى بعظيم الأوصـاف والأوجـاع فإن لام من فعـل ذلـك به وعـابـه ، فقـد نقض قوله وخرج عن أصل مذهبه وقيل له هذا الذي فعله بك مقتضي مقدور فخلق الله وقدره ومشيئته متناول لك وله وهو يعمكما فان كان القدر حجة لك فهو حجـة لهذا ، وإلا فليس بحجـة لا لك ولا له ، فقـد تبـين بضـرورة العقل فساد قول من ينظر إلى القدر ويعرض عن الأمر والنهي .

ش : يعني أن هؤلاء المتصـوفـة المجـبرة النـاظـرين إلى الحقيقـة القدرية والمشيئة العامة غير مشاهدين لأمر الله ونهيه ولا مفرقين بين ما يحبه الله ويبغضـه ، ليسـوا على قاعـدة مستمرة ولا رأي ثابت بل هم متناقضون مخالفون للحقائق العقلية والاعتبارات الصحيحة . فانه لا يوجد أحد يحتج بالقـدر فى ترك الـواجب وفعـل المحـرم إلا وهـو متنـاقض لا يجعله حجة في مخالفـة هواه بل يعـادي من آذاه وان كان محقـاً ويحب من وافقـه على غرضه وان كان عدواً لله ، فيكـون حبـه وبغضـه ومـوالاتـه ومعـاداته بحسب هواه وغـرضـه وذوق نفسـه ، لا بحسب أمر الله ونهيه ، ولا يمكـن أن يجعل القدر حجـة لأحـد فإن هذا مستلزم للفسـاد الـذي لا صلاح معه والشر الذي لا خير فيه ، إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد ولا اقتص من ظالم ولا أخــذ لمظلوم حقـه من ظالمـه ولفعـل كل أحـد ما يشتهيـه من غير معارض يعارضه فيه ، وحينئذ فكلام هؤلاء ساقط ورأيهم متهافت مخالف لما هو معلوم بضرورة **العقل** والقياس ، فان الجائع يفرق بين الخبز والشراب ، والعطشان يفرق بين الماء والسراب فيحب ما يشبعه ويرويه دون ما لا ينفعه والجميـع مخلوق لله تعـالى . قال الشيـخ : ومن المعلوم أن من أسقـط الأمر والنهي الـذي بعث الله به رسله فهـو كافر باتفاق المسلمين فإن هؤلاء قولهم

متنـــاقض لا يمكن أحـد منهم أن يعيش به ولا تقـوم به مصلحـة أحـد من الخلق ولا يتعـاشـر عليـه اثنان فإن القدر ان كان حجة فهو حجة لكل أحد وإلا فليس حجـة لأحـد، فإذا قدر أن الـرجـل ظلمه ظالم أو شتمه شاتم أو أخذ ماله أو أفسد أهله أو غير ذلك فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته أبطل الاحتجـاج بالقـدر، وإذاً فقوله: «فإن الواحد من هؤلاء لا يمكنه أن يطرد قولـه. . . الـخ» معنـاه: أن هؤلاء المتصـوفـة المشـركيـة المدعين التحقيق والمعرفة، متناقضون مخالفون للشرع والعقل والذوق، فانهم لا يسوون بين من أحسن إليهم وبـين من ظلمهم ولا يسـوون بين العـالم والجاهل والقادر والعاجز ولا بين الطيب والخبيث، وهؤلاء المجبرة لا يقفون لا مع القدر ولا مع الأمر، بل كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري أي مذهب يوافق هواك تمذهب به وبهذا يتضح فساد قولهم وشناعة رأيهم وأنه مخالف للنهج المستقيم، والأوصاب: هي الامراض واحدها وصب.

قـــــوله :

والمـؤمن مأمـور بأن يفعـل المأمـور ويـترك المحظـور، ويصبر على المقـدور كما قال تعـالى: ﴿وان تصـبروا وتتقـوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ وقــال في قصـــة يوسف: ﴿انـــه من يتق ويصـــبر فان الله لا يضيـع أجـر المحسنين﴾ فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، ولهذا قال الله تعـالى: ﴿فـاصـبر ان وعـد الله حق، واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكـار﴾ فأمـره مع الاستغفـار بالصبر، فان العباد لابد لهم من الاستغفـار أولهم وآخـرهم. قال النبي ﷺ في الحـديث الصحيـح: «ياأيها الناس، توبوا إلى ربكم فو الذي نفسي بيده إني لاتسغفر الله وأتوب إليه في اليـوم أكثـر من سبعـين مرة» وقال: «انه ليغان على قلبي وإني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة» وكان يقول: «اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وهـزلي وجـدي وكـل ذلـك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما

أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر» وقد ذكر عن آدم أبي البشر انه استغفر ربه وتاب إليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن إبليس أبي الجن انـه أصـر متعلقـاً بالقـدر، فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم، قال الله تعالى: ﴿وحملها الانسـان انـه كان ظلومـاً جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشـركـات ويتـوب الله على المـؤمنـين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ولهـذا قرن الله سبحـانـه بين التوحيد والاستغفار في غير آية كما قال تعالى: ﴿فـاعلم انـه لا إلـه إلا الله واستغفـر لذنبـك وللمـؤمنـين والمؤمنات وقال تعـالى: ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ وقال تعالى: ﴿الر كتاب أحكمت آيـاتـه ثم فصلت من لدن حكيم خبـير ألا تعبدوا إلا الله انني لكم منه نذير وبشـير وان استغفـروا ربكم ثم توبـوا إليـه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى﴾ وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره: «يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله - والاستغفار، فلما رأيت ذلـك بثثت فيهم الأهـواء فهم يذنبـون ولا يتـوبـون لأنهم يحسبـون انهم يحسنون صنعا» وقد ذكر الله سبحانه عن ذي النون أنه ﴿نادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ قال تعالى: ﴿فاستجبنا له ونجينـاه من الغم، وكـذلـك ننجي المـؤمنـين﴾ وقال النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه».

ش: يعني أن الناظرين إلى القدر المعرضين عن الشرع قد أخطئوا الصـواب واتبعـوا غير سبيـل المـؤمنـين فان واجب المؤمن الذي فرضه الله عليـه، هو فعـل ما أمـر به وترك ما نهى عنه والصبر على ما قدره الله وقضاه من المصائب كما في آية آل عمران وآية يوسف، وإذاً فحقيقة تقوى الله هي فعل المأمور واجتناب المحظور والصبر على المقدور كما في آية غافر. فقد أمر الله فيهـا بفعـل الطاعات والصبر والندم والاقلاع والعزم على ترك الذنوب وطلب العفو من الرحمن الرحيم، والعباد كلهم مأمورون بأن يتوبوا إلى الله

ويستغفروه قال تعالى فى الحديث القدسي : (ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم) وقوله ﷺ : «ياأيها الناس توبوا إلى ربكم»، أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقوله عليه الصلاة والسلام : «إنه ليغان على قلبي» رواه مسلم من حديث أبي بردة عن الأغر المزني . وقوله ﷺ : «يغان على قلبي» معناه هو كما قال فى فتح الباري عن عياض المراد بالغين فترات عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه فإذا فتر عنه لأمر عد ذلك ذنبا فاستغفر عنه» وقيل هو شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس . وقيل هو السكينة التى تغشى قلبه والاستغفار لاظهار العبودية لله والشكر لما أولاه ، وقال الشيخ الهروردي : «لا يعتقد أن الغين فيه حالة نقص بل هو كمال أو تمة كمال ثم مثل لذلك بجفن العين حين يسبل ليدفع القذى عن العين مثلا فانه يمنع العين من الرؤ ية فهو من هذه الحيثية نقص وفى الحقيقة هو كمال» وقوله ﷺ : «اللهم اغفر لي خطيء» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه . وقوله : (وقد ذكر عن آدم أبي البشر أنه استغفر ربه وتاب إليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن إبليس أبي الجن انه أصر متعلقاً بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد اشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم) يعني كما في قوله جل وعلا : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ وكما في قوله سبحانه : ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها

فاخرج إنك من الصاغرين قال انظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين قال فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين قال اخرج منها مذؤ وماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما اني لكما لمن الصالحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وحينئذ فمن ارتكب معاصي الله وتمرد عن طاعته وأصر على ارتكابه المحرمات فقد أشبه عدو أبيه : ومن جعل أباه قدوة له وإماما فسار سيرته واتبع أثره فقد ربح وفاز بسعادة الدنيا والآخرة، كما أن الذي يشبه أباه في خلقته أو سجاياه لم يظلم أمه لأنه جاء على مثال أبيه الذي ينسب إليه، وذلك أنه لو خالف أباه لنسب الناس أمه إلى الزنا وهذا القول مقتبس من بيت رؤ بة ابن العجاج يمدح به عدي بن حاتم الطائي وأصله :

(بأبه اقتدى عدى فى الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم)

والشاهد من آية الأحزاب أن الله سبحانه عفو كريم، رؤ وف بعباده رحيم، يتوب على من تاب وأقلع عن المعاصي وأناب، ومن أجل أن التوبة تمحو الذنب وتقضي عليه نجد أن الله تبارك وتعالى قد ذكر فى كتابه العزيز، الاستغفار من الذنوب إلى جانب الأمر بتوحيده وطاعته كما فى آية القتال وحم السجدة وهود، والعدو اللدود حريص على إغواء الناس وإضلالهم فهو يتحسر على أنهم أهلكوه بالذكر وطلب الغفران. وأنه حين رأى منهم ذلك لجأ إلى طريقة ينفذ منها إلى غرضه وهي بث الفرقة

والاختـلاف بينهم فى الآراء والمـذاهب، كما فى الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم، وقوله (وغيره): يعني وقد رواه أيضاً أبو يعلى بسنده عن أبي بكر الصـديق رضى الله عنـه قال: قال رسـول الله ﷺ «عليكم بلا إلـه إلا الله والاستغفـار فاكثـروا منهـما فإن إبليس قال إنـما أهلكت النـاس بالـذنـوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالاغواء فهم يحسبـون أنهم مهتـدون» وقد روى الطبراني وابن مردويه عن عبد بن عمرو عن النبي «أفضـل الـذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الاستغفار ـ ثم قرأ ـ فاعلم أنـه لا إلـه إلا الله واستغفـر لذنبـك وللمؤمنين والمؤمنات» وفى ذلك كله حث على كثـرة الـذكـر والاستغفـار: ومعنى قولـه: (فهم يذنبون ولا يتـوبـون لأنهم يحسبـون أنهم يحسنون صنعا) ان أهل البدع والشبهات من هذه الأمـة مصـرون على ما هم عليـه لاعتقـادهم أنهم مصيبـون، وهـذا متنـاول لكـل من عبـد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبـول وهـو مخطىء وعمله مردود كما قال تعـالى: ﴿وجـوه يومئذ خاشعـة عاملة ناصبـة تصلى نارا حاميـة﴾ وقـد فسـر الله سبحـانـه في آية الكهف الأخسـرين أعـمالا بالـذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا أي عملوا أعمالا باطلة على غير شريعة مشروعة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أي يعتقـــدون أنهم على شيء وأنهم مقبـــولـون، والله جل وعـلا يجيب دعـاء الداعين ويسمع استغاثة الملهوفين ويتوب على التائبين كما حكى الله ذلك فى قصة ذي النون فى سورة الأنبياء.

وذو النـون هو يونس بن متى ولقب ذا النـون لابتـلاع الحوت له فان النـون من أسـماء الحـوت والمراد بالظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، وكان نداؤه هو قوله ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظـالمـين﴾ ومعنى (سبحانك) تنزيهاً لك من أن يعجزك شيء، (إني كنت من الظـالمـين) الـذين يظلمـون أنفسهم قال الحسن وقتـادة هذا القول من يونس اعـتراف بذنبـه وتـوبة من خطيئته قال ذلك وهو فى بطن الحوت، ثم

أخبر الله سبحانه بانه استجاب له فقال: ﴿فاستجبنا له﴾ دعاءه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب ﴿ونجيناه من الغم﴾ باخراجنا له من بطن الحوت ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ أي نخلصهم من همومهم وقوله ﷺ: (دعوة أخي ذي النون) الخ. هذا الحديث رواه الترمذي وأحمد عن سعد بن أبي وقاص ولفظه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دعوة أخي ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له» وقد سمى ﷺ قول ذي النون «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» دعوة لانها تتضمن نوعي الدعاء، فقوله لا إله إلا أنت اعتراف بتوحيد الالهية وتوحيد الالهية أحد نوعي الدعاء فان الاله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة، وقوله إني كنت من الظالمين صيغة خبر يتضمن طلب المغفرة فان الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب وتارة يسأل بصيغة الخبر، أما بوصف حاله وأما بوصف حال المسئول وأما بوصف الحالتين كقول نوح عليه السلام ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ فهذا ليس صيغة طلب وإنما هو إخبار عن الله انه إن لم يغفر له ويرحمه خسر، ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم عليه السلام ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هو من هذا الباب، ومن ذلك قول موسى عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ فان هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير.

وقريب من حديث ذي النون الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم».

والكرب: والكربة، الحزن والمشقة والغم الشديد. والمكروب:

المهموم.

وابن أبي عاصم، هو عاصم ابن علي الحافظ الامام الثقة سمع أباه وعكرمة ابن عمار وغيرهما وحدث عنه البخاري في صحيحه وأحمد بن حنبل وأبو حاتم الرازي وغيرهم توفى سنة إحدى وعشرين ومائتين سنة ٢٢١هـ . وأبـوه هو علي بن عاصم بن صهيب مولى قريبـة بنت محمـد بن أبي بكـر الصديق وكان مولده سنة خمس ومائة وتوفى سنة ٢٠١هـ كان حافظاً حدث عنـه أحمـد ابن حنبـل وأبـو داود وغـيرهما. وقوله: «وعن إبليس أبي الجن» معنـاه: أن الشيطـان أصـل الجن، كما أن آدم أصـل البشـر، وبـذلك قال بعض السلف، وعليه فالاستثناء فى الآيات التى فيها أمر الملائكة بالسجود لآدم منقطع. وقال الجمهور بل هو من الملائكة من حي يقال لهم الجن كما فى آيـة الصـافـات، وعليـه فالاستثناء فى الآيات متصل. ومحل بسط ذلك كتب التفسير.

قــــوله :

وجمـاع ذلـك، أنه لابد له في الأمر من أصلين ولابد له في القدر من أصلين، ففي الأمر، عليه الاجتهاد في امتثال الأمر علما وعملا، فلا يزال يجتهد فى العلم بما أمر الله به والعمل بذلك ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه فى الأوامر وتعديه الحدود، ولهذا كان من المشروع، أن يختم جميع الأعـمال بالاستغفـار فكـان النبي ﷺ إذا صلى استغفـر ثلاثـا، وقـد قال تعـالى: ﴿والمستغفـرين بالاسحـار فقـاموا بالليل وختموه بالاستغفار﴾، وآخـر سورة نزلت، قولـه تعـالى: ﴿إذا جاءنصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفـواجـا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ وفي الصحيح عن عائشة «انه كان ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي يتأول القرآن».

وأما في القدر فعليه أن يستعين بالله في فعل ما أمر به، ويتوكل عليه

ويدعوه ويرغب إليه ويستعين به، ويكون مفتقرا إليه في طلب الخير وترك الشر وعليه ان يصبر على المقدور، ويعلم ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وإذا آذاه الناس علم ان ذلك مقدر عليه ومن هذا الباب، احتجاج آدم وموسى لما قال موسى ياآدم، أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، لما أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، فبكم وجدت مكتوبا على من قبل ان أخلق ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ قال بكذا وكذا فحج آدم موسى» وذلك ان موسى لم يكن عتبه على آدم لاجل الذنب فإن آدم كان قد تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ولكن لاجل المصيبة التي لحقتهم من ذلك وهم مأمورون ان ينظروا إلى القدر في المصائب وان يستغفروا من المعائب كما قال تعالى: ﴿فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾ فمن راعى الأمر والقدر ـ كما ذكر ـ كان عابدا لله مطيعا له مستعينا به متوكلا عليه، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ش: يعني والقول الجامع للبحث السابق في باب شرع الله وقدره، أنه يجب على العبد فى كل منهما أصلان، ففي الأمر عليه الاجتهاد فى تحصيل العلم بأوامر الله وامتثالها وهذا هو الأصل الأول، وعليه أن يستغفر الله من زلاته وتقصيره فى واجباته وترك المحرمات فلا يتعدى حدود الله وهذا هو الأصل الثاني، ومن أجل أن على العبد أن يفعل المأمور ويترك المحذور ويستغفر عن خطيئته، شرع أن تختم الأعمال بالاستغفار كما في الحديث الذي رواه مسلم بسنده عن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام» قيل للأوزاعي وهو أحد رواة الحديث كيف الاستغفار؟ قال: يقول استغفر الله، وفي آية آل عمران بين الله جل وعلا أن المتقين كانوا إذا تهجدوا بالليل ختموا تهجدهم بالاستغفار. فقال

سبحـانـه : ﴿الـذين يقـولـون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ وكان آخر سورة نزلت هي سورة النصـر وفيهـا أمـر الله نبيه بالتسبيح والاستغفار، وقد روى ابن جرير بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ يكثـر من قول سبحـان الله وبحمده واستغفر الله وأتوب إليه فقلت يارسول الله أراك تكثـر من قول سبحـان الله وبحمـده واستغفـر الله وأتـوب إليـه . فقـال : خبر ني ربي أني سأرى علامـة من أمتي فإذا رأيتهـا أكثرت من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه فقد رأيتها» ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ـ فتح مكة ـ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ فقد أمر الله نبيـه بعـد أن بلغ الـرسالة وجاهد فى الله حق جهاده وأتى بما أمر الله به مما لم يصـل إليـه أحـد غيره أن يستغفـر. وقـوله وفى الصحيح يعني وفي الحديث الصحيـح فقـد رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها كما تقـدم بيـانه ، والشاهد منه استغفاره ﷺ وامتثاله ما أمر به فى قوله سبحانه : ﴿فسبـح بحمـد ربـك وأستغفـره إنـه كان توابـاً﴾ وعليـه فى باب القدر أن يستعـين بالله فى فعـل المأمـور واجتناب المحذور ويرغب إلى الله فيلجأ إليه ويسأله المدد والعون والتأييد ، وأن ييسر له اليسرى ويجنبه العسرى وهذا هو الأصـل الأول ، وعليـه أن يصبر على ما قضاه الله وقدره عليه من المصائب والآلام فلا يجزع أو يتسخط بل يعلم أن ذلك من عند الله فيرضى ويسلم ، وأن يعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليـه ، وهـذا هو الأصـل الثـاني . ومن قبيـل الـرضا بالمقدور ما جاء فى الصحيحـين عن أبي هريـرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لما قال له موسى : «أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شيء لما أخرجتنا ونفسك من الجنة فقـال له آدم أنت موسى الـذي اصطفـاك الله برسـالتـه وبكلامه وخط لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوباً علي قبل أن أخلق وعصى آدم ربه فغوى

قال بأربعين عاما (كما فى رواية مسلم) قال فحج آدم موسى» فآدم عليه السلام إنما حج موسى لأن موسى لامه على ما فعل لأجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب أكله من الشجرة، لم يكن لومه لأحق حق الله فى الذنب فان آدم كان قد تاب من الذنب فتاب عليه) قال تعالى: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه﴾ وقال تعالى: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ وموسى ومن هو دون موسى يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب، وآدم أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجة فإن هذه لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لابليس عدو آدم وحجة لفرعون عدو موسى وحجة لكل كافر وفاجر ولبطل أمر الله ونهيه، بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى لأنه لام غيره لأجل المصيبة التى حصلت له بفعله ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة وقد قال الله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾.

وحينئذ فالعباد مأمورون باتباع المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور وعدم ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي خلافاً لأولئك الصوفية الذين شهدوا القدر وتوحيد الربوبية وغابوا عن الفرق الالهي الديني الشرعي الذي يفرق بين محبوب الحق ومكروهه. وبالمراعاة الصحيحة لقدر الله وشرعه يصير الانسان عابداً حقيقة فيكون مع الذين أنعم الله عليهم من أنبياء وصديقين وشهداء وصالحين وكفى بهذه الصحبة غبطة وسعادة.

قـــوله :

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع، كقوله في أم الكتاب ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقوله: ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ وقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله

بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾ .

فالعبـادة إنـما هي لله والاستعاذة والاستعانة لا تكون إلا بالله ولذلك كان النبي ﷺ يقـول عنـد الأضحية : «اللهم منك ولك» فما لم يكن بالله لا يكون ، فانه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وما لم يكن لله لا ينفع ولا يدوم .

ش : يقـول الشيـخ ان من الأصلين الـواجبـين في باب القـدر: الاستعـانـة بالله وعبـادتـه والانابة إليه وقد جمعهما الله في مواضع عديدة من كتابه كما فى آية الفاتحة وهود والشورى والطلاق ، وحينئذ فالعبادة إنما هي لله والاستعـاذة والاستعـانـة لا تكون إلا بالله ولذلك كان النبي ﷺ يقول عند ذبح الأضحية اللهم منك ولك كما فى الحديث الذي رواه أبو داود والبيهقي وابن ماجه عن جابر رضي الله عنه ولفظه : «ضحى رسول الله ﷺ يوم عيد بكبشـين ، فقـال حين وجههما وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين اللهم منك ولك عن محمد وأمته» .

والله سبحانه هو المعطي والمنعم المتفضل كما انه المانع ، وحينئذ فما لم يكن بالله لا يكـون فانـه لا تحول من حال إلى حال إلا بالله العـلي العظيم وأي مسعى أو عمل لا يكون لله فانه غير نافع لصاحبه ومآله إلى الذهاب والـزوال ، فان ما عنـد العباد فان ، وما عند الله باق ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ .

قـــــوله :

ولابـد في عبـادتـه من أصلين أحدهما إخلاص الدين والثاني موافقة أمره الذي بعث به رسله (ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئاً) قال الفضيل في قوله تعالى ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ قال أخلصـه وأصـوبه قالوا ياأبا علي ، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال : إذا كان

العمـل خالصـا ولم يكن صوابـاً لم يقبـل وإذا كان صوابـاً ولم يكن خالصـا صوابا والخالص: أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ولهذا ذم الله المشـركـين في القـرآن على اتبـاع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين الذي لم يأذن به الله من عبادة غيره وعبادته بما لم يشرعه من الدين. كما قال تعالى: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ كما ذمهم على انهم حرموا ما لم يحرمه الله. والدين الحق: أنه لا حرام إلا ما حرم الله ولا دين إلا ما شرعه.

ش: يعني فان دين الاسلام مبني على أصلين أحدهما أن يعبد الله وحـده لا يشـرك به شيء. والثـاني: أن يعبـد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ وهـذان هما حقيقـة قولنـا أشهـد أن لا إلـه إلا الله وأشهـد أن محمـداً عبده ورسـولـه فالالـه هو الـذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجـاء وإجـلالا، والله عز وجـل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله ولا يطـاع إلا الله، وكـل من لم يعبـد الله بعـد مبعث محمـد ﷺ بما شرعـه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم، ولابـد فى جميـع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين كما قال تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ وقال تعالى: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنـزلنـا إليـك الكتـاب بالحق فاعبـد الله مخلصـا له الـدين ألا لله الـدين الخالص﴾ فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة كالايمان بالله ورسـولـه والعبـادات البـدنيـة والمالية والاحسان إلى عباد الله هومأمور بأن يفعله خالصـاً لله صوابـاً على السنة، والشاهد من كلام الخليفة الراشد هو أن العمـل لا يكـون مقبـولا إلا إذا خلا من شوائب الشـرك والبدع وكذلك الشـاهـد من تفسـير الفضيـل للآيـة الكـريمة هو أن العبادة لها ركنان هما الاخـلاص والمتـابعة. ومن أجل ما ذكر نجد الله جل وعلا قد ذم المشركين

لصرفهم العبادة أو شيئا منها لغير الله أو عبادتهم إياه بغير ما شرعه فى كتابه أو على لسان رسوله ﷺ كما في آية الشورى. كما ذمهم على أنهم حرموا ما لم يحرمه كما فى قوله سبحانه: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ الآية.

فالحرام ما حرمه الله والحلال هو ما أحله، كما أن الدين هو ما أنزل به كتبه وأرسل به رسله.

وعمر بن الخطاب هو أبو حفص العدوي الفاروق وزير رسول الله ﷺ ومن أيد الله به الاسلام وفتح به الأمصار وهو الصادق الملهم الذي جاء عن المصطفى ﷺ أنه قال: (لو كان بعدي نبي لكان عمر) وهو الذي فر منه الشيطان وأعلى به الايمان، وأعلن الأذان. وقد استشهد رضي الله عنه فى أواخر الحجة من سنة ٣٢ وعاش نحواً من ستين سنة، والفضيل بن عياض هو الامام القدوة أبو علي التميمي اليربوعي المروزي شيخ الحرم حدث عن منصور بن المعتمر وحصين بن عبد الرحمن وعطاء بن السائب وطبقتهم بالكوفة وروى عنه ابن المبارك ويحيى القطان والقعنبي وخلق كثير وكان ربانياً قانتاً ثقة، قال هارون الرشيد: ما رأيت في العلماء أهيب من مالك ولا أروع من الفضيل. توفي يوم عاشوراء سنة سبع وثمانين ومائة وقد نيف على الثمانين رحمة الله عليه.

قـــــوله:

ثم ان الناس في عبادته واستعانتهم به على أربعة أقسام. فالمؤمنون المتقون هم له وبه يعبدونه ويستعينونه وحده وطائفة تعبده من غير استعانة ولا صبر فتجد عند أحدهم تحرياً للطاعة والورع ولزوم السنة، ولكن ليس لهم توكل ولا استعانة ولا صبر بل فيهم عجز وجزع. وطائفة: فيهم استعانة وتوكل وصبر من غير استقامة على الأمر ولا متابعة للسنة، فقد

يمكن أحــدهم ويكــون له نوع من الحـال باطنـا وظـاهـرا ، ويعطى من المكـاشفـات والتأثـيرات ما لم يعطه الصنف الأول ولكن لا عاقبة له ، فانه ليس من المتقـين والعـاقبة للتقوى فالأولون لهم دين ضعيف ولكنه مستمر باق ان لم يفسـده صاحبـه بالجـزع والعجـز ، وهؤلاء لأحدهم حال وقوة ، ولكن لا يبقى له إلا ما وافق فيه الأمر واتبع فيه السنة . وشر الأقسام من لا يعبده ولا يستعينه فهو لا يشهد ان عمله لله ولا انه بالله .

ش : لما بين المؤلف أنه لابد في باب القدر مع الصبر من عبادة الله والاستعانة به وان الله قد قرن بينهما في مواضع عديدة من كتابه وأن العبادة لا تستقيم ولا تصح إلا بالاخـلاص والمتـابعة ، ذكر بعد ذلك أن الناس في عبادة الله والاستعانة به أصناف أربعة أحدها ، وهو المحمود ، من جمع بين عبـادة الله والاعتـماد عليـه فاستعـان بالله واستقـام على طاعته وهؤلاء هم الـذين حققـوا قولـه تعـالى : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله سبحانه : ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فاستعانوا به على طاعته وشهدوا أنه إلهم الذي لا يجوز أن يعبـد إلا إيـاه واعتقـدوا أنـه ربهم الـذي ليس لهم من دونه ولي ولا شفيـع وفهمـوا معنى قوله تعالى : ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ وقوله : ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ وقـوله : ﴿قل أفرأيتم ما تدعــون من دون الله إن أرادني الله بضــر هل هن كاشفـات ضره أو أرادني برحمـة هل هن ممسكـات رحمتـه﴾ والثاني : من عنده تعبد وورع وتحر لاتباع الشـرع ولكن عنـده إلى جانب ذلك ضعف وخور فلا صبر له وليس عنده استعانة بالله ولا توكل عليه وهؤلاء هم قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي ويشـاهـدون إلهيـة الـرب سبحـانه الذي أمروا أن يعبدوه غير ناظرين إلى جانب القضــاء والقـدر والتـوكـل والاستعـانـة ، فهم مع حسن قصـدهم وتعظيمهم لحرمـات الله ولشعـائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لأن الاستعـانـة بالله والتـوكل عليه واللجوء إليه هي التي تقوي العبد وتيسر

عليه الأمور وقد فقدوها، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع وقد جاء وصف النبي ﷺ بأنه المتوكل كما فى الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ (صفته فى التوراة إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للآدميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوباً غلفاً بأن يقولوا لا إله إلا الله) ولهذا روي أن حملة العرش إنما أطاقوا حمله بقولهم لا حول ولا قوة إلا بالله. وفى صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه فى قوله «وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم الخليل حين ألقى فى النار وقالها محمد ﷺ «حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم»، وحينئذ فأهل العبادة والاستعانة بالله هم المؤمنون المتقون حقاً، والثالث: من عنده استعانة بالله وتوكل عليه وعدم جزع، ولكن ليس عنده استقامة على طاعة الله بل هو معرض عن أوامره ومرتكب لنواهيه مشاهد لربوبية الحق غير ناظر إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه، وهذا حال كثير من المتصوفة، وقوله: (فقد يمكن أحدهم ويكون له نوع من الحال باطناً وظاهراً ويعطى من المكاشفات والتأثيرات ما لم يعطه الصنف الأول ولكن لا عاقبة له فانه ليس من المتقين والعاقبة للتقوى) معناه أن هذا الصنف من الناس قد يحصل له ما لا يحصل للصنف الثاني، من العلم بالكونيات والقدرة على التأثير فيها بالحال والقلب كالأحوال الفاسدة من العين والسحر، وكالاطلاع على سيئات العباد وركوب السباع والاجتماع بالجن والمشي على الماء وأمثال ذلك، وكثير من هؤلاء يبنون أحوالهم على منامات وأذواق وخيالات يعتقدونها كشفا، وهي خيالات غير مطابقة وأوهام غير صادقة ان يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً. وهؤلاء كثيراً ما يسلبون أحوالهم، وقد يعودون بأنواع من المعاصي

والفسوق، بل كثير منهم يرتد عن الاسلام لأن العاقبة للتقوى ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه، تارة فى بدعة يظنونها شرعة، وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الأمر، والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين فى سورة الأنعام ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ واعلم أن الكشف والتأثير منه ما هو محمود نافع ومنه ما هو مذموم ضار، كما أنهما قد يقعان للمؤمن الطائع وقد يقعان للمنافق والفاجر، فالأول هو علم الدين والعمل به والأمر به، بأن يؤتى الانسان من علم الدين والعمل به ما يستعمل به الكشف والتأثير الكوني بحيث تقع الخوارق الكونية تابعة للأوامر الدينية، أو أن تخرق له العادة فى الأمور الدينية بحيث ينال من العلوم الدينية ومن العمل بها ومن الأمر بها ومن طاعة الخلق فيها ما لم ينله غيره فى مطرد العادة، فهذا أعظم الكرامات والمعجزات وهو حال نبينا محمد ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأمثالهم من المؤمنين المتقين. والثاني: كمخاطبة الشياطين، للمستغيث بغير الله من غائب وميت وقضائهم حوائجهم ودفعهم عنهم بعض ما يضرهم فيظن أحدهم أن الولي أو الميت هو الذي فعل ذلك. فيقول أحدهم هذا سر المستغاث به وحاله وإنما هو الشيطان تمثل به ليضل المشرك المستغيث به فقد تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم كما كان ذلك فى أصنام مشركي العرب.

(قال الشيخ رحمه الله ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة شيخه وإنما ذلك كله من الشياطين، وهذا من أعظم الأسباب التى عبدت بها الأوثان) وقوله: «فالأولون لهم دين ضعيف ولكنه مستمر باق إن لم يفسده صاحبه بالجزع والعجز وهؤلاء لأحدهم حال وقوة ولكن لا يبقى له إلا ما وافق فيه الأمر واتبع فيه السنة»

يعني أن الصنف الثاني وهو من عنده عبادة وليس له صبر ولا استعانة، له دين ضعيف ومع ضعفه فهو باق مستمر إن لم يغلب على صاحبه الكسل والخمول وأما هذا الصنف فعنده عمل وصبر ولكن لا يبقى معه من أعماله إلا ما كان على مقتضى شرع الله الذي أنزله فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، قال ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد».

والرابع: وهو شر الأصناف من يعرض عن عبادة الله والاستعانة به فلا يلاحظ أنه خلق لعبادة الله ولا يدرك أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، في حين أن العبادة هي الغاية التى خلق الجن والانس من أجلها فالعبد لا يكون مطيعاً لله ورسوله فضلا أن يكون من خواص أوليائه المتقين إلا بفعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، وفى حين أن العبد عاجز عن الاستقلال فى جلب مصالحه ودفع مضاره ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول وهذا تحقيق معنى لا حول ولا قوة إلا بالله فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله فى فعل المأمورات وترك المحذورات والصبر على المقدورات كلها، فالصبر واجب على المؤمن حتما وفى الصبر خير كثير، فان الله أمر به ووعد عليه جزيل الأجر قال عز وجل: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وقال: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

قوله:

فالمعتزلة ونحوهم من القدرية، الذين أنكروا القدر. هم في تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد، خير من هؤلاء الجبرية القدرية، الذين يعرضون عن الشرع والأمر والنهي، والصوفية هم في القدر ومشاهدة توحيد الربوبية خير من المعتزلة ولكن فيهم من فيه نوع بدع، مع اعراض عن بعض الأمر والنهي والوعد والوعيد حتى يجعلوا الغاية هي مشاهدة توحيد الربوبية والفناء في ذلك ويصيرون أيضاً معتزلة لجماعة المسلمين

وسنتهم، فهم معتزلة من هذا الوجه، وقد يكون ما وقعوا فيه من بدعة شرا من بدعة أولئك المعتزلة، وكلتا الطائفتين نشأت من البصرة.

ش : يقول الشيخ إذا عرف كل ما تقدم من التفصيل فى بحث القدر فليعلم أن القدرية المعتزلة وهم نفاة القدر، هم من جهة تعظيم أوامر الله ونهيه واحترام وعد الله ووعيده أفضل من القدرية المجبرة وهم الذين يغلون فى إثبات القدر حتى يسلبوا العبد قدرته واختياره كما سبق بيان ذلك. فان المجبرة بسلبهم قدرة العبد واختياره لم يعظموا شرع الله ووعده ووعيده بل أعرضوا عن ذلك، وهؤلاء الصوفية المجبرة هم من جهة ملاحظتهم القضاء والقدر وعموم المشيئة أفضل من أولئك المعتزلة حيث قالوا إن العبد يخلق أفعال نفسه، على أن فى الصوفية المجبرة، من هو متلبس بشيء من البدع وفيه إعراض عن بعض أوامر الله ونهيه وعدم اكتراث بوعيده حتى يصل بهم الحال إلى أن يجعلوا مشاهدة الربوبية العامة والاستغراق فى ملاحظتها هو الغاية المطلوبة من توحيد الله، وبهذا يكونون بمنأى عن جماعة المسلمين، وفي حيز عن شرع الله، وينطبق عليهم بهذا الاعتبار وصف المعتزلة على أن بدعتهم قد تكون أشنع وأخبث من بدعة القدرية المعتزلة، وكل من نفاة القدر، والمحتجين به كان منشؤهم ومنطلق بدعتهم هو البصرة بالعراق.

قوله :

إنما دين الله ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، وهو الصراط المستقيم، وهو طريق أصحاب رسول الله ﷺ خير القرون وأفضل الأمة، وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين، قال تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ فرضي عن السابقين الأولين رضاً مطلقا ورضي عن التابعين لهم بإحسان وقد قال النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «خير القرون القرن

الـذين بعث فيهم ، ثم الـذين يلونهم ثم الـذين يلونهم» وكـان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : «من كان منكم مستنا فليستن بمن قدمات ، فإن الحي لا تؤمن عليـه الفتنـة أولئـك أصحـاب رسـول الله ﷺ ، أبر هذه الأمـة قلوبـاً ، وأعمقهـا علماً وأقلهـا تكلفـاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فانهم كانوا على الهـدى المستقيم» وقـال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما : «يامعشر القراء ، استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم ، فو الله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقـاً بعيـداً ، ولئن أخـذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم . ضلالاً بعيداً» وقال عبـد الله بن مسعـود رضي الله عنـه : «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وخط لنا خطـوطـاً عن يمينـه وعن شمالـه ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعـوا السبـل فتفـرق بكم عن سبيله﴾ وقـد أمـرنـا سبحـانه أن نقول فى صلاتنـا : ﴿إهـدنـا الصـراط المستقيم ، صراط الـذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقال النبي ﷺ : (اليهود مغضوب عليهم والنصـارى ضالـون) وذلـك أن اليهـود عرفـوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبـدوا الله بغـير علم ولهـذا كان يقـال : (تعـوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون) وقال تعالى : ﴿فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : (تكفـل الله لمن قرأ القـرآن وعمـل بما فيـه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى فى الآخرة وقرأ هذه الآية وكذلك قوله تعالى : ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيـه هدى للمتقـين الـذين يؤمنـون بالغيب ، ويقيمـون الصلاة ومما رزقنـاهم ينفقـون والـذين يؤمنـون بما أنـزل إليـك ومـا أنـزل من قبلك وبـالآخـرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ فأخبر ان هؤلاء مهتدون مفلحون وذلك خلاف المغضوب عليهم والضالين .

فنسأل الله يهدينا وسائر إخواننا صراطه المستقيم صراط الذين أنعم

الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ش : يعني إن ما عليه المبتدعة والملاحدة من جبرية وقدرية وجهمية ومعتزلة وغيرهم ممن زاغ عن سبيل المؤمنين ليسوا على هدى ولا شرع من الله، وإنما دين الله هو ما شرعه في كتابه العزيز، (الذي فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا الذي هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به﴾ من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم) كما قال ذلك الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما رواه أبو عيسى الترمذي رحمه الله، وكذلك دين الله هو ما سنه رسول الله ﷺ فقد شرع الشرائع وسن السنن بإذن ربه ووحيه، لا من تلقاء نفسه كما شهد الله له بذلك في قوله عز وجل ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ وعلى هذا النهج المستقيم درج الصحابة رضي الله عنهم أجمعين يستضيؤن بمشكاة القرآن فيهديهم أقوم الطريق ويتحاكمون إليه وإلى سنة رسول الله ﷺ، ولقد مدحهم سبحانه وأثنى عليهم حيث قبلوا عن رسول الله ما بلغه إليهم وهم المهاجرون والأنصار الذين ضرب بهم المثل في التوراة والأنجيل والقرآن فقال: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ الآية، وقال: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ الآية. فهم حجة الله على خلقه بعد رسول الله ﷺ يؤدون عن رسوله ما أدى إليهم لأنه بذلك أمرهم فقال ليبلغ الشاهد منكم الغائب

ولقد مدحهم رسول الله ﷺ كما في الحديث الذي رواه مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن» وروى مسلم أيضا بسنده عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»، ومعنى الخيرية في الأحاديث راجعة لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والايمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون ويتفاضل فيها العاملون، فقد غلب الخير وكثر أهله واعتز فيها الاسلام والايمان وكثر فيها العلم والعلماء ثم الذين يلونهم فضلوا على من بعدهم لظهور الاسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة؛ فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان ويكثر القتل فيمن عاند منهم ولم يتب والمشهور في الروايات أن القرون المفضلة ثلاثة الثالث دون الأولين في الفضل لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون والاسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم، واذاً فالشاهد من آية براءة وحديث عمران بن حصين هو مدح أصحاب رسول الله ﷺ والثناء عليهم، لاستقامتهم على أمر الله وتمسكهم بهدي رسول الله. وقوله: (فرضي الله عن السابقين رضاً مطلقاً ورضي عن التابعين لهم بإحسان) معناه أن الله أوجب لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطاً لم يشرطه فيهم وهو اتباعهم إياهم باحسان، فالصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول ﷺ إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم، ومعنى الذين اتبعوهم باحسان الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة وليس المراد بهم التابعين اصطلاحا، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي ﷺ؛ بل

هم من جملة من يدخل تحت الآية فتكون من فى قوله من المهاجرين على هذا للتبعيض وقيل إنها للبيان فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة، والمهاجرون جمع مهاجر وأصل المهاجرة عند العرب: أن ينتقل الانسان من البادية إلى المدن والقرى، والمراد به فى الشريعة، من فارق أهله ووطنه وجاء إلى بلد الاسلام وقصد النبي ﷺ رغبة فيه وإيثاراً ثم هي عموماً الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الاسلام وأثر ابن مسعود فى وصف الصحابة رضي الله عنهم أجمعين رواه رزين بن معاوية العبدري، ومثله ما جاء عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمه أنه قال عليك بلزوم السنة فانها لك باذن الله عصمة فإن السنة إنما جعلت ليستن بها ويقتصر عليها، وإنما سنها من قد علم ما فى خلافها من الزلل والخطأ والحمق والتعمق فارض لنفسك بما رضوا به لأنفسهم فانهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفوا ولهم كانوا على كشفها أقوى وبالفضل لو كان فيها أحرى، وإنهم لهم السابقون وقد بلغهم عن نبيهم ما يجري من الاختلاف بعد القرون الثلاثة فلئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه ولئن قلتم حدث حدث بعدهم فما أحدثه إلا من ابتغى غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم واختار ما نحته فكره على ما تلقوه عن نبيهم ﷺ وتلقاه عنه من تبعهم باحسان ولقد وصفوه منه ما يكفي وتكلموا منه بما يشفي فمن دونهم مقصر ومن فوقهم مفرط لقد قصر دونهم أناس فجفوا وطمح آخرون فغلوا وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم) وأثر حذيفة رواه البخاري، ومعشر القراء المراد بهم علماء القرآن والسنة، وقوله فقد سبقتم قيل الرواية الصحيحة بفتح السين والباء والمشهور ضم السين وكسر الباء والمعنى على الأول اسلكوا طريق الاستقامة لأنكم أدركتم أوائل الاسلام فاستمسكوا بالكتاب والسنة لتسبقوا إلى خير، إذ من جاء بعدكم وإن عمل بعملكم لا يصل إلى سبقكم إلى الاسلام، وعلى الثانية سبقكم المتصفون بتلك الاستقامة إلى الله فكيف ترضون لنفوسكم هذا التخلف المؤدي إلى

انحراف عن سنن الاستقامة يميناً وشمالا الموجب للهلاك الأبدي، وحذيفة هو ابن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ، شهد أحداً وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين مات بالمدائن سنة ٣٦هـ . وقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خط لنا رسول الله ﷺ خطا الخ . رواه الامام أحمد فى المسند، قال محمد بن نصر المروزي في كتابه السنة قال الله عز وجل: ﴿وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به﴾ . فأخبر الله أن طريقه واحد مستقيم وأن السبل كثيرة تصد من اتبعها عن طريقه المستقيم ثم بين لنا النبي ﷺ ذلك بسنته . وروى بسنده عن أبى وائل عن عبد الله قال خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه﴾ الآية . فحذرنا الله ثم رسوله المحدثات والأهواء الصادة عن اتباع أمر الله وسنة نبيه ﷺ ثم أخبرنا النبي ﷺ أن الله لا يدع عبده المؤمن مع ما بين له في كتابه وسنة نبيه حتى يعضه وينبهه بما يخطر بقلبه ليعتصم بذلك من دعاء الشياطين إلى الصد عن سبيله وعن طريق مرضاته، وروى بسنده عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتى الصراط سور فيه أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فاذا أراد فتح شيء من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فانك ان تفتحه تلجه فالصراط: الاسلام والستور: حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوقه واعظ فى قلب كل مسلم . وروى بسنده عن مجاهد فى قول الله تعالى ولا تتبعوا السبل قال البدع والشبهات، وروى أبو بكر محمد بن الحسين الآجري فى كتابه الشريعة بسنده عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر الكلاعي قالا دخلنا على العرباض بن

سارية رضي الله عنه وهو مريض فقلنا له إنا جئناك زائرين وعامدين ومقتبسين فقال عرباض رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ صلى صلاة الغداة ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يارسول الله ان هذه لموعظة مودع فما تعهد إلينا قال أوصيكم بتقوى الله عز وجل والطاعة والسمع وان عبداً حبشياً فانه من يعش منكم بعدي سيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» كما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وحينئذ فالشاهد من حديث ابن مسعود الحث على لزوم السنة والتحذير من سلوك سبيل البدعة وأن الخير كله فى الاتباع والشر كله فى الابتداع، ولقد أمرنا الله جل وعلا أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فانه إذ هدانا هذا الصراط أعاننا على طاعته وترك معصيته فلم يصبنا شر لا فى الدنيا ولا في الآخرة والذنوب من لوازم النفس وكل أحد محتاج إلى الهدى كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب، ولهذا أمر به في كل صلاة لفرط الحاجة إليه «قال الشيخ وإنما يعرف بعض قدره من اعتبر أحوال نفسه ونفوس الانس والجن المأمورين بهذا الدعاء ورأى ما فيها من الجهل والظلم اللذين يقتضيان أن يدعو الانسان بما حصل به شفاءها فى الدنيا والآخرة فيعلم أن الله تعالى بفضله ورحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر» وقوله ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم» هذا الحديث رواه الترمذي، ولفظه عن عدي بن حاتم قال أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد فقال القوم هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب فلما دفعت إليه أخذ بيدي، وقد قال قبل ذلك إني لأرجو أن يجعل الله يده فى يدي قال فقام بي فلقيته امرأة وصبي معها فقالا إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس

عليها وجلست بين يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما يضيرك أيضيرك أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إلاه سوى الله قال قلت لا. ثم تكلم ساعة ثم قال ما يضيرك أن تقول الله أكبر، أوتعلم شيئاً أكبر من الله؟ قال: قلت لا، قال فان اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال، قال فقلت فاني حنيف مسلم قال فرأيت وجهه ينبسط فرحاً، وكون اليهود مغضوب عليهم هو من جهة عدم العمل فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولا أو عملاً وكون النصارى ضالين هو من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون فى أصناف من العبادات بلا شريعة من الله ويقولون على الله ما يعلمون. وهذا معنى قول الشيخ «وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبدوا الله بغير علم» ومن أجل وصف اليهود والنصارى بما ذكر كان السلف رحمهم الله يقولون «احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون» وذلك أن الأول يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه. والثاني: يشبه الضالين الذين يعلمون بغير علم. قال سفيان بن عينية: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى» ومع أن الله قد حذرنا سبيل اليهود والنصارى فلابد من وقوع ما قدره الله وقضاه مما أخبر به رسوله ﷺ فيما أخرجاه فى الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله اليهود والنصارى قال: فمن) وفيما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع فقيل يارسول الله كفارس والروم قال ومن الناس إلا أولئك) قال الشيخ رحمه الله فأخبر ﷺ أنه سيكون فى أمته مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب ومضاهاة لفارس والروم وهم الأعاجم، وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وليس هذا إخباراً عن جميع الأمة بل قد تواتر عنه أنه قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة) وأخبر ﷺ: (أن الله لا

يجمع هذه الأمة على ضلالة وأن الله لا يزال يغرس فى هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته) واذا فالفرقة والاختلاف لابد من وقوعهما فى الأمة ولكن كان ﷺ يحذر أمته من ذلك لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة، وهذا كله خرج منه مخرج الخبر عن وقوع ذلك والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمات فعلم أن مشابهة هذه الأمة لليهود والنصارى وفارس والروم مما ذمه الله ورسوله. قال الشيخ ولا يقال فاذا كان الكتاب والسنة قد دلا على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه، لأن الكتاب والسنة أيضاً قد دلا على أنه لا يزال فى هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق الذي بعث الله به محمداً ﷺ إلى قيام الساعة وأنها لا تجتمع على ضلالة، ففي النهي عن ذلك تكثير لهذه الطائفة المنصورة وتثبيتها وزيادة ايمانها، والشاهد من آيتي طه والبقرة هو الحث على الاعتصام بحبل الله ولزوم الصراط المستقيم اذ فى ذلك سعادة الدنيا والآخرة فلا ضلال في الدنيا ولا شقاء فى الآخرة، بل ايمان ويقين ولذة واطمئنان وفوز وفلاح؛ وهذا بخلاف ما يحصل لليهود والنصارى ومن على شاكلتهم فى الزيغ والالحاد والكفر والعناد، مما وصفه الله عز وجل بقوله ﴿ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ وقوله ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون، ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾ وأثر ابن عباس رواه بن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ولفظه عن ابن عباس قال: (أجار الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا أو يشقى في الآخرة، ثم قرأ ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ قال لا يضل في الدنيا ولا يشقى فى الآخرة﴾ وأخرج بن أبي شيبة والطبراني عن ابن عباس

قال قال رسول الله ﷺ (من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة فى الدنيا ووقـاه سوء الحسـاب يوم القيـامـة وذلـك أن الله يقول فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى).

نسأل الله تعـالى أن يرزقنـا وإخواننا فى النسب والدين صحبة المنعم عليهم من الأنبيـاء والصـديقين والشهداء والصالحين، فان هؤلاء قد هدوا صراطـاً مستقيـما وحسن أولئـك رفيقا، وهم الموعودون في مثل قوله سبحانه ﴿ان الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحـات انـا لا نضيـع أجر من أحسن عملا أولئـك لهم جنـات عدن تجري من تحتهم الأنهـار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا﴾ وقوله عز وجل: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾ وبالله ثقتنا وعليه اعتمادنا ومن يتوكل على الله فهو حسبه، وبعد: فإلى هنا ينتهي شرحي للتدمرية وهو جهد المقل، فأنا لا أدعي أنه هو كل ما تستحقه هذه الرسالة العظيمة، غير أنني أومن بأن ما لا يدرك كله لا يترك كله. ولئن قال الأوائـل (المـؤلف مثل المكلف لا يخلو من المؤاخذة ولا يرفع عنه القلم) وقالوا: «من ألف فقد استهدف، وأصم آذنا وإن كان لغيرها قد شنف» لئن قالوا هذه المقالة وأمثالها، فانهم أيضا بلسان المقال أو بلسـان الحـال يقـولـون «من تخوف ما ألف، ومن طلب الكـمال فانما طلب المحـال» على أنني أرجـو أن يكـون شرحي هذا فاتحة خير لشروح أخرى، يتعـرض أصحـابهـا لجوانب قد أكـون قصـرت فيهـا، ويكفيني ممن يأتي بعـدي: ان يعـترف ويـدعـو بمثل ما اعترف ودعا به ابن مالك لسلفه ابن معطي حيث يقول:

(وهـو بسبـق حائـز تفضيـلا   مستـوجـب ثنـائـي الجميـلا
والله يقـضـي بهبـات وافـرة   لي ولـه فى درجـات الآخـرة

هذا والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله الطاهرين صلاة وسلاما دائمين متعاقبين ما دامت الأرض والسموات .

المــراجع

— مجموع الفتاوى .
— مجموع الرسائل .
— منهاج السنة .
— موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول .
— الرد على المنطقيين .
— شرح حديث النزول .
— التوسل والوسيلة .
— جواب أهل العلم والايمان .
— اقتضاء الصراط المستقيم : لشيخ الاسلام أحمد بن تيمية[1] .
— مناقب ابن تيمية لابن عبد الهادي .
— شرح الطحـاويـة : لعـلي بن علي بن محمـد بن أبي العـز الأذرعي الدمشقي .
— مدارج السالكين .
— مختصر الصواعق .
— اجتماع الجيوش الاسلامية : للعلامة ابن قيم الجوزية .
— الملل والنحل : للشهرستاني .
— الفرق بين الفرق : لعبد القاهر البغدادي .
— مقالات الاسلاميين : لأبي الحسن الأشعري .
— نقض عثمان بن سعيد الدارمي على بشر المريسي .

---

(١) فى الجزء الأول عند ذكرى لنسب الشيخ استظهرت أن محمد بن الخضر المسئول عن اسم تيميـة أب لعبـد الله ، والـواقع انهما اخوان يجتمعان فى الخضر بن محمد ، كما اتضح ذلك بعد قراءتي لعدد من الكتب المترجمة لابن تيمية .

— الرد على الجهمية له أيضا.
— تذكرة الحفاظ: للذهبي.
— وفيات الأعيان: لابن خلكان.
— مقدمة ابن خلدون.
— الاتقان فى علوم القرآن: لجلال الدين السيوطي.
— فتح القدير: للشيخ محمد بن علي الشوكاني.
— فتح المجيد: للشيخ عبد الرحمن بن حسن.
— معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي.
— الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية: للشيخ زيد بن فياض.
— التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية: للشيخ عبدالعزيز بن رشيد.
— فتح رب البرية ملخص الفتوى الحموية: للشيخ محمد بن عثيمين.

فهرس الجزء الثاني من التحفة المهدية

الصفحة	الموضـــــوع

الصفحة	الموضـــــوع

الصفحة	الموضـــــوع

الصفحة	الموضـــــــوع

الطبعـــة الثانية
١٤٠٥هـ